دكتور
محمد حسن شرشر
مدرس البلاغة والنقد
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
البنات بالقاهرة — جامعة الأزهر

قبس من البيان القرآني

الطبعة الأولى
١٤٠٣ هـ — ١٩٨٣ م

دار الطباعة المحمدية ٣ درب الأتراك بالأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على من كان خلقه القرآن ، وجرى على لسانه جوامع الكلم ، وروائع البيان ، وعلى آله وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان .

« وبعد » .

فإن القرآن الكريم بحر زاخر بالكنوز والنفائس ، ومن أراد الحصول على لآلئه ودرره ، فعليه أن يغوص فى أعماقه ، ولآلئه لاتنفد ، ودرره لاتتناهى .

أنزله الله شفاء لما فى الصدور ، وهدى ورحمة للعالمين ، بهر عقول فرسان البيان فخروا له ساجدين ، وتفتحت به عيون الغافلين فوجدوا نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، وأشرقت به قلوب المؤمنين فزادهم إيمانا إلى إيمانهم .

وهذا « قبس من البيان القرآنى » أرجو أن ينفع الله به ، وأن يحقق الغاية المرجوة ، وأن يؤتى ثماره الطيبة ، وأن يكون فى صحيفتى يوم الدين . يوم لاينفع مال ولابنون . إلامن أتى الله بقلب سليم .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت ، وإليه أنيب ؟

غرة ربيع الأول ١٤٠٣ هـ ، ١٦ ديسمبر ١٩٨٢ م

د . محمد حسن شرشر

الإعجاز البلاغى للقرآن الكريم

القرآن الكريم محيط مترامى الأطراف ، لا تحده عقـــول الأفراد ولا الأجيال ، تلتقى عنده نهايات الفضيلة كلها على تباعد ما بين أطرافها .

والحديث عن إعجازه لاينضب ، والكلام فيه لا يمل ، وما قيل فيه فهو قليل من كثير ، وكلما تقدم الزمن تجلت نواح عديدة من نواحى إعجازه وأسرار فياضة من أسرار بيانه ، وقام البرهان القاطع بأن القرآن الكريم تنزيل من الحكيم الحميد .

لقد جرت حكمة الله الأزلية أن يؤيد أنبياءه بالمعجزات الباهرات ، والدلائل الواضحات ، والحجج الناصعة ، والبراهين الساطعة ، التى تدل على صدقهم .

وقد خص الله تبارك وتعالى نبينا ﷺ بالمعجزة العظمى « القرآن الكريم » ذلك النور الربانى ، والوحى السماوى ، الذى ألقاه على نبيه قرآنا عربيا غير ذى عوج .

ولئن كانت معجزات الأنبياء السابقين « حسية » تتناسب مع العصر والزمان الذى بعثوا فيه ، كمعجزة « موسى » عليه السلام حيث كانت « اليد والعصا » لأنه بعث فى زمن كثر فيه السحرة ، واشتهر فيه السحر ، وكذلك معجزة « عيسى » عليه السلام حيث كانت « إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله » لأنه بعث فى عصر كثر فيه الطب والحكمة ، وظهر فيه الأطباء البارعون ، فأتاهم عيسى عليه السلام بما أدهشهم وأعجزهم ، فإن معجزة محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه معجزة « عقلية خالدة » لأنها خاتمة الرسالات فهى خالدة خلود الدهر ، باقية بقاء الإنسان(١) .

---

(١) التبيان فى علوم القرآن ص ٩٠ ، والنبأ العظيم ص ١٠٨ ، ١١٨

وإذا كان إعجاز القرآن معناه : إثبات القرآن عجز الخلق — متفرقين ومجتمعين — عن الإتيان بمثله ، فليس المقصود بإعجاز القرآن تعجيز الخلق لذات التعجيز ، وإنما الغرض إظهار أن هذا الكتاب حق ، وأن الرسول الذي جاء به رسول صادق أمين بوحي من الحكيم العليم .

هذا . وقد جاء المصطفى صلوات الله وسلامه عليه بهذا القرآن العظيم متحديا أساطين البلاغة وفرسان البيان . بصور متعـــددة وأساليب متنوعة .

تحداهم أن يأتوا بمثل القرآن فعجزوا وولوا الأدبار « فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين »(١) .

فلما عجزوا تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله « أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون »(٢) .

فعجزوا — أيضا — فتحداهم أن يأتوا بسورة واحدة « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين »(٣) .

فعجزوا كذلك ولم يتقدم واحد منهم إلى حلبة الميدان ، وبذلك سجل عليهم القرآن الكريم العجز والهزيمة .

---

(١) الطور ٣٤

(٢) هود ١٣ — ١٤

(٣) البقرة ٢٣ — ٢٤

وثبتت معجزة محمد النبي الأمي الأمين على أن هذا القرآن العظيم تنزيل من رب العالمين .

« وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين »(١) .

يقول أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي في تفسيره « الجامع لأحكام القرآن » قوله تعالى : « فإن لم تفعلوا » أي فيما مضى ، « ولن تفعلوا » أي تطيقوا ذلك فيما يأتي .. وفي قوله « ولن تفعلوا » إثارة لهممهم وتحريك لنفوسهم ، ليكون عجزهم بعد ذلك أبدع ، وهذا من الغيوب التي أخبر بها القرآن قبل وقوعها .

وقال ابن كيسان : ولن تفعلوا « توقيفا لهم على أنه الحق ، وأنهم ليسوا صادقين فيما زعموا أنه كذب ، وأنه مفترى ، وأنه سحر ، وأنه شعر ، وأنه أساطير الأولين ، وهم يدعون العلم ولا يأتون بسورة من مثله(٢) .

كما يقول محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان في تفسيره « البحر المحيط » في قوله تعالى : « فأتوا بسورة » طلب منهم الإتيان بمطلق سورة وهي القطعة من القرآن التي أقلها ثلاث آيات ، فلم يقترح عليهم الاتيان بسورة طويلة فيتعنتوا في ذلك بل سهل عليهم ، وأراح عليهم بطلب الإتيان بسورة ما ، وهذا هو غاية التبكيت والتخجيل لهم ، فإذا كنتم لا تقدرون أنتم ولا معاضدوكم بالإتيان بسورة من مثله فكيف تزعمون أنه من جنس كلامكم ، وكيف يلحقكم في ذلك ارتياب أنه من عند الله .

وفي قوله : « ولن تفعلوا » إثارة لهممهم ليكون عجزهم بعد ذلك أبلغ

---

(١) الشعراء ١٩٢ — ١٩٥

(٢) تفسير القرطبي — دار الشعب ص ٢٠١

وأبدع، وفى ذلك دليلان على إثبات النبوة أحدهما صحة كون المتحدى به معجزاً، الثانى الإخبار بالغيب من أنهم لن يفعلوا وهذا لا يعلمه إلا الله تعالى .

ويدل على ذلك أنهم لو عارضوه لتوفرت الدواعى على نقله خصوصاً من الطاعنين عليه ، فإذا لم ينقل ذلك دل على أنه إخبار بالغيب وكان ذلك معجزة(١) .

ويقول الرافعى : إن التحدى كان مقصوراً على المعارضة بمثل القرآن ثم بعشر سور مثله مفتريات ، لا يلتزمون فيها الحكمة ولا الحقيقة ، وليس إلا النظم والأسلوب ... ثم قرن التحدى بالتأنيب والتقريع ، ثم استفزهم بعد ذلك جملة واحدة كما ينفخ الرماد الهامد فقال «وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » ، فقطع لهم أنهم لن يفعلوا وهى كلمة يستحيل أن تكون إلا من الله ، ولا يقولها عربى فى العرب أبداً وقد سمعوها واستقرت فيهم ودارت على الألسنة ، وعرفوا أنها تنفى عنهم الدهر نفياً وتعجزهم آخر الأبد مما فعلوا ولا طمعوا قط أن يفعلوا وطارت الآية بعجزهم .

تأمل نظم الآية تجد عجباً ، فقد بالغ فى اهتياجهم واستفزازهم ليثبت أن القدرة فيهم على المعارضة كقدرة الميت على إعمال الحياة : لن تكون ولن تقع ، فقال لهم : لن تفعلوا ، أى هذا منكم فوق القوة وفوق الحيلة وفوق الاستطاعة وفوق الزمن ، ثم جعلهم وقوداً ، ثم قرنهم إلى الحجارة ثم

---

(١) تفسير البحر المحيط — دار الفكر — المجلد الأول ص ١٠٤

صمام كافرين ، فلو أن لهم قوة بعد ذلك لانفجرت ، ولكن الرماد فهو البارود(١) .

هذا ، وقد مرت على اللغة العربية من عهد نزول القرآن إلى عصرنا هذا أدوار مختلفة بين علو ونزول ، واتساع وانقباض ، وحركة وجمود وحضارة وبداوة ، والقرآن فى كل هذه الأدوار واقف فى عليائه يطل على الجميع من سمائه وهو يشع نوراً وهداية ويفيض عذوبة وجلالة ، ويسيل رقة وجزالة ، ويرف جدة وطلاوة ، ولايزال كما كان غضا طريا ، يحمل راية الإعجاز ، ويتحدى أمم العالم فى يقين وثقة قائلا فى صراحة الحق وقوته ، وسلطان الإعجاز وصولته : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هــذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً »(٢) .

وقد روعى فى تسميته قرآنا كونه متلواً بالألسن ،كما روعى فى تسميته كتابا كونه مدونا بالأقلام ، فكلتا التسميتين من باب تسمية الشىء بالمعنى الواقع عليه .

وفى تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقــه العناية بحفظه فى الصدور والسطور جميعاً ، أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ، فلاثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب، المنقول إلينا جيلا بعد جيل على هيئته التى وضع عليها أول مرة، ولاثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر .

---

(١) إعجاز القرآن والبــلاغة النبوية — الطبعة السابعة ١٩٦١ ص ١٩١

(٢) الإسراء ٨٨

وبهذه العناية المزدوجة التى بعثها الله فى نفوس الأمة المحمدية اقتداء بنبيها بقى القرآن محفوظاً فى حرز حريز، إنجازاً لوعد الله الذى تكفل بحفظه حيث يقول «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»(١).

ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند، حيث لم يتكفل الله بحفظها، بل وكلها إلى حفظ الناس فقال تعالى: «والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله»(٢)، أى بما طلب إليهم حفظه.

والسر فى هذه التفرقة أن سائر الكتب السماوية جىء بها على التوقيت لا على التأبيد، وأن هذا القرآن جىء به مصدقاً لما بين يديه من الكتب ومهيمناً عليها، فكان جامعاً لما فيها من الحقائق الثابتة، زائداً عليها بما شاء الله زيادته، وكان ساداً مسدها، ولم يكن شىء منها ليسد مسده فقضى الله أن يبقى حجة إلى قيام الساعة. وإذا قضى أمراً يسر له أسبابه وهو الحكيم العليم»(٣).

والناظر فى هذا الكتاب الكريم بإنصاف تتراءى له وجوه كثيرة من الإعجاز كما تتراءى للناظر إلى قطعة الماس ألوان عجيبة متعددة بتعدد ما فيها من زوايا وأضلاع، ومختلفة باختلاف ما يكون عليه الناظر وما تكون عليه قطعة الماس من الأوضاع(٤).

---

(١) الحجر ٩

(٢) المائدة الآية ٤٤

(٣) النبأ العظيم ص ١٢، ومناهل العرفان جـ ٢ ص ٣٣٢

(٤) مناهل العرفان جـ ٢ ص ٣٣٢

ومن أهم هذه الوجوه (أنه بديع النظم ، عجيب التأليف ، متناه فى البلاغة إلى الحد الذى يعلم عجز الخلق عنه) .

فالقرآن الكريم لايشبهه شىء فى نظمه ، لامن شعر ولامن نثر ، وذلك بشهادة أساطين البلاغة ، وأئمة الفصاحة .

يقول الباقلانى : نظم القرآن على تصرف وجوهه ، وتباين مذاهبه ، خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ، ويتميز فى تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد .

ومن عجيب نظمه ، وبديع تأليفه أنه لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه التى يتصرف فيها من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج ، وحكم وأحكام ، وإعذار وإنذار ، ووعد ووعيد ، وتبشير وتخويف ، وأوصاف ، وتعليم أخلاق كريمة وشيم رفيعة ، وسير مأثورة، وغير ذلك من الوجوه التى يشتمل عليها، وتجد كلام البليغ الكامل، والشاعر المفلق ، والخطيب المصقع ، يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور .

فن الشعراء من يجود فى المدح دون الهجو ، ومنهم من يسبق فى التقريظ دون التأبين، ومنهم من يجود فى التأبين دون التقريظ ، ومنهم من يغرب فى وصف الإبل أو الخيل أو سير الليل ، أو وصف الحرب ، أو وصف الروض ، أو غير ذلك مما يشتمل عليه الشعر ويتناوله الكلام ، ولذلك ضرب المثل بامرىء القيس إذا ركب ، والنابغة إذا رهب، وزهير إذا رغب . ومثل ذلك يختلف فى الخطب والرسائل وسائر أجناس الكلام .

وقد تأملنا نظم القرآن ، فوجدنا جميع مايتصرف فيه من الوجوه التى قدمنا ذكرها على حد واحد فى حسن النظم ، وبديع التأليف والرصف ، لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا ، ولا إسفاف فيه

إلى المرتبة الدنيا ، وكذلك قد تأملنا مايتصرف إليه من وجوه الخطاب من الآيات الطويلة والقصيرة ، فرأينا الإعجاز في جميعها على حد واحد لايختلف ، وكذلك قد يتفاوت كلام الناس عند إعادة ذكر القصة الواحدة تفاوتا بينا ، ويختلف اختلافا كبيرا ، ونظرنا القرآن فيما يعاد ذكره من القصة الواحدة فرأيناه غير مختلف ولامتفاوت ، بل هو على نهاية البلاغة، وغاية البراعة ، فعلمنا بذلك أنه مما لايقدر عليه البشر(١) .

وقد روى أن الوليد بن المغيرة عندما سمع من المصطفى صلوات الله وسلامه عليه قوله تعالى « حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم . غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لاإله إلا هو إليه المصير »(٢) قال : والله لقد سمعت منه كلاما ماهو من كلام الإنس ، ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه وما يقول هذا بشر(٣) .

كما روى — أيضا — أن ثلاثة من بلغاء قريش الذين لا يعدل بهم فى البلاغة أحد وهم الوليد بن المغيرة ، والأخنس بن قيس ، وأبو جهل بن هشام ، اجتمعوا ليلة يسمعون القرآن من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى به فى بيته إلى أن أصبحوا ، فلما انصرفوا جمعتهم الطريق ، فتلاوموا على ذلك ، وقالوا : إنه إذا رآ كم سفهاؤكم تفعلون ذلك فعلوه ،واستمعوا إلى مايقوله ، واستمالهم وآمنوا به ، فلما كان فى الليلة الثانية ، عادوا وأخذ كل منهم موضعه ، فلما أصبحوا جمعتهم الطريق ، فاشتد نكيرهم وتعاهدوا وتحالفوا ألا يعودوا ، فلما تعالى النهار جاء الوليد بن المغيرة إلى الأخنس

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ط دار المعارف ص ٣٨

(٢) غافر الآيات ١،٢،٣

(٣) تفسير القرطبي دار الشعب ص ٦٨٦٥

ابن قيس فقال : ماتقول فيما سمعت من محمد ؟ فقال الأخنس : ماذا أقول ؟ قال بنو عبد المطلب : فينا السقاية قلنا نعم ، قالوا فينا الحجابة قلنا نعم ، قالوا فينا السداقة قلنا نعم، يقولون فينا نبي ينزل عليه الوحي، والله لا آمنت به أبدا ، فما صدهم إلا العصبية كما ترى(١) .

هذا . ومن الخصائص العليا التي امتاز بها : بديع نظم القران وحسن بيانه وروعة أسلوبه :

مسحة القرآن اللفظية :

فإنها مسحة خلابة . تبهر العقول ، وتأسر النفوس ، وهذه المسحة العجيبة تتجلى في نظامه الصوتي وجماله اللغوي .

والمقصود بنظام القرآن الصوتي : اتساق القرآن وائتلافه في حركاته وسكناته ومداته وغناته، واتصالاته وسكتاته اتساقا عجيبا، وائتلافا رائعا يسترعي الأسماع ويستهوي النفوس ، بطريقة لا يمكن أن يصل إليها كلام آخر من منظوم ومنثور .

والمراد بجمال القرآن اللغوي: تلك الظاهرة العجيبة التي امتاز بها القرآن في رصف حروفه ، وترتيب كلماته ترتيبا دونه كل ترتيب ، ونظام تعاطاه الناس في كلامهم .

فإذا استمعت إلى حروف القرآن خارجة من مخارجها الصحيحة تشعر بلذة جديدة في رصف هذه الحروف بعضها بجانب بعض في الكلمات والآيات.

يقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعي: لو تدبرت ألفاظ القران في نظمها لرأيت حركاتها الصرفية واللغوية تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي ط السابعة ١٩٦١ ص٢٤٢

أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة ، فيهيء بعضها لبعض ، ويساند بعضها ، ولن تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف مساوقة لها في النظم الموسيقى

وقد وردت في القرآن ألفاظ هي أطول الكلام عدد حروف ومقاطع مما يكون مستثقلا بطبيعة وضعه أو تركيبه ، ولكنها بتلك الطريقة التي أومأنا إليها قد خرجت في نظمه مخرجا مريأ ، فكانت من أحضر الألفاظ حلاوة ، وأعذبها منطقا ، وأخفها تركيبا ، إذ تراه قـــد هيأ لها أسبابا عجيبة من تكرار الحروف وتنوع الحركات ، فلم يجرها في نظمه إلا وقد وجد ذلك فيها كقوله : ليستخلفنهم في الأرض(١) . فهي كلمة واحدة من عشرة أحرف ، وقد جاءت عذوبتها من تنوع مخارج الحروف ومن نظم حركاتها ، فإنها بذلك صارت في النطق كأنها أربع كلمات ، إذ تنطق على أربعة مقاطع .

وقوله « فسيكفيكهم الله »(٢) فإنها كلمة من تسعة أحرف ، وهي ثلاثة مقاطع ، وقد تكررت فيها الياء والكاف ، وتوسط بين الكافين هذا المد الذي هو سر الفصاحة في الكلمة كلها .

ومما لا يسمه طوق إنسان في نظم الكلام البليغ ، ثم مما يدل على أن نظم القرآن مادة فوق الصنعة ومن وراء الفكر ، وكأنها صبت على الجملة صبا ، أنك ترى بعض الألفاظ لم يأت فيه إلا مجموعا ، ولم يستعمل منه صيغة المفرد ، فإذا احتاج إلى هذه الصيغة استعمل مرادفها كلفظة (اللب) فإنها لم ترد إلا مجموعة كقوله تعالى (إن في ذلك لذكرى لأولى الألباب)(٣) وقوله : وليذكر أولو الألباب(٤) ونحوهما ، ولم تجيء فيه مفردة ، بل جاء

---

(١) النور ٥٥
(٢) البقرة : الآية ١٣٧
(٣) الزمر ٢١
(٤) ابراهيم ٥٢

فى مكانها (القلب) وذلك لأن لفظ الباء شديد مجتمع ، ولا يفضى إلى هذه الشدة إلا من اللام الشديدة المسترخية ، فلما لم يكن ثم فصل بين الحرفين يتهيأ معه هذا الانتقال على نسبة بين الرخاوة والشدة ،لم تحسن اللفظة مهما كانت حركة الإعراب فيها نصبا أو رفعا أو جرا فأسقطها من نظمه بتة، على سعة ما بين أوله وآخره ، ولو حسنت على وجه من تلك الوجوه لجاء بها حسنة رائعة ، وهذا على أن فيه لفظة (الجب) وهى فى وزنها ونطقها لولا حسن الائتلاف بين الجيم والباء من هذه الشدة فى الجيم المضمومة .

وكذلك لفظة الكوب ، استعملت فيه مجموعة ، ولم يأت بها مفردة لأنه لا يتهيأ فيها ما يحملها فى النطق من الظهور والرقة والانكشاف وحسن التناسب كلفظ (أكواب) الذى هو الجمع .

وعكس ذلك لفظة (الأرض) فإنها لم ترد فيه إلا مفردة ، فإذا ذكرت السماء مجموعة جىء بها مفردة فى كل موضع منه ، ولما احتاج إلى جمعها أخرجها على هذه الصورة التى ذهبت بسر الفصاحة وذهب بها حتى أخرجت من الروعة بحيث يسجد لها كل فكر سجدة طويلة وهى فى قوله تعالى (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن)[1] ولم يقل وسبع أرضين ، لهذه الجسأة التى تدخل اللفظ ويختل بها النظم اختلالا — وأنت فتأمل — رعاك الله — ذلك الوضـــع البيانى ، واعتبر مواقع النظم ، وانظر هل تتلاحق هذه الأسباب الدقيقة ، أو تتيسر مادتها الفكرية لأحد من الناس فيما يتعاطاه من الصناعة ، أو يتكلفه من القول ، وإن استقصى فيه الذرائع ، وبالغ فى الأسباب ، وأحكم ما قبله وما وراءه ؟

---

(١) الطلاق ١٢

ومن الألفاظ لفظة « الآجر » وليس فيها من خفة التركيب إلا الهمزة وسائرها نافر متقلقل لا يصلح مع هذا المد فى صوت ولا تركيب على قاعدة نظم القرآن ، فلما احتاج إليها طوح لفظها ولفظ مرادفها وهو « القرمد »(١) وكلاهما استعمله فصحاء العرب ولم يعرفوا غيرهما .

ثم أخرج معناها بألطف عبارة وأرقها وأعذبها وساقها فى بيان مكشوف يفضح الصبح ، وذلك فى قوله تعالى : وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا (٢). فانظر ، هل تجد فى سر الفصاحة ، وفى روعة الإعجاز أبرع أو أبدع من هذا ؟ وأى عربى فصيح يسمع مثل هذا النظم وهذا التركيب ، ولا يملكه حسه ، ولا يسوغه حقيقة نفسه ، ولا يجن به جنوناً ، ولا يقول آمنت بالله رباً وبمحمد نبياً ، وبالقرآن معجزة (٣) ؟

ولقد وصل هذا الجمال الصوتى واللغوى إلى قمة الإعجاز ، بحيث لو دخل فى القرآن شىء من كلام الناس لاختل مذاقه فى أفواه قارئيه ، واختل نظامه فى آذان سامعيه .

ومن عجيب أمر هذا الجمال اللغوى وذلك النظام الصوتى ، أنهما كما كانا دليل إعجاز من ناحية كانا سوراً أمنياً لحفظ القرآن من ناحية أخرى .

وذلك أن من شأن الجمال اللغوى ، والنظام الصوتى ، أن يسترعى الأسماع ويثير الانتباه ، ويحرك داعيه الإقبال فى كل إنسان إلى هذا

---

(١) وهو فى العامية « الطوب » أى الطين المحرق الذى يبنى به

(٢) القصص ٣٨

(٣) انظر إعجاز القرآن ص٢٥٧ وما بعدها .

القرآن الكريم ، وبذلك يبقى أبد الدهر سائداً على ألسنة الخلق وفي آذانهم ، ويعرف بذاته وبمزاياه بينهم فلا يجرؤ أحد على تغييره وتبديله مصداقاً لقوله تعالى « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » (١) .

جودة سبك القرآن :

فالقرآن الكريم بلغ من ترابط أجزائه ، وتماسك كلماته وجمله ، وآياته وسوره مبلغاً لا يدانيه فيه كلام آخر مهما علا شأنه وارتفع قدره .

يقول الإمام الخطابي : إنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ حامل ، ومعنى به قائم ، ورباط لهما ناظم ، وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه ، وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها .

وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق في أنوع الكلام ، فأما أن توجد مجموعة في نوع واحد منه فلم توجد إلا في كلام العليم القدير ، الذي أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً .

فتفهم الآن واعلم أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعاني من توحيد له عزت قدرته ، وتنزيه له في صفاته ، ودعاء إلى طاعته ، وبيان بمنهاج عبادته من تحليل

---

(١) الحجر ٩ — انظر مناهل العرفان جـ ٢ ص ٣١٣

وتحريم وحظر وإباحة ، ومن وعظ وتقويم ، وأمر بمعروف ونهي عن منكر ، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق ، وزجر عن مساوئها ، واضعا كل شيء منها موضعه الذى لايرى شيء أولى منه ، ولا يرى فى صورة العقل أمر أليق منه (١) .

إن الآية القرآنية تتضافر ألفاظها فى نغم هادىء إن كانت فى تبشير أو داعية إلى التأمل والتفكير ، وتتلاءم نغماتها قوية إذا كانت فى إنذار أوفى وصف عذاب ، اقرأ قوله تعالى : الحاقة ماالحاقة. وماأدراك ماالحاقة . كذبت ثمود وعاد بالقارعة . فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية . وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانيـــة أيام حسوما . فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية . وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة . فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية (٢) إنك ترى فى هذه الآيات الكريمات ، وهى إنذار بما يكون يوم القيامة ، وما يستقبل الذين طغوا فى البلاد ، وأكثروا فيها الفساد من عذاب شديد يترقبهم — ترى فى النغم قوة شديدة قارعة لأسماع الذين يشركون ، ويكفرون بالله تعالى ، ويفسدون ويعتدون ويظلمون ، ويشترك فى نغمة الترهيب الألفاظ بحروفها ، والجمل بكلماتها ، والخواتم بشدة جرسها ، وقرع الأسماع بها .

ثم اقرأ فى سورة الضحى نغمات الرحمة الواسعة إذ يقول سبحانه : والضحى . والليل إذا سجى . ماودعك ربك وماقلى . وللآخرة خير لك من الأولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى . ألم يجدك يتيما فآوى . ووجدك

---

(١) البيان فى إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل فى الإعجاز ط دار المعارف ص ٢٧

(٢) الحاقة ١ — ١٠

ضالا فهدى، ووجدك عائلا فأغنى. فأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر. وأما بنعمة ربك فحدث(١).

وانظر إلى الآيات الداعية إلى التأمل فى الكون ومافيه من أمور هادية تجد فيها النغمات الهادئة اللافتة الموجهة من غير قرع الأسماع، بل بتوجيه الأفهام.

اقرأ قوله تعالى فى سورة الغاشية:

« أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت. وإلى السماء كيف رفعت. وإلى الجبال كيف نصبت. وإلى الأرض كيف سطحت، فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمصيطر. إلا من تولى وكفر. فيعذبه الله العذاب الأكبر. إن إلينا إيابهم. ثم إن علينا حسابهم »(٢).

إنك ترى فى هذا النص المبين قد اجتمع التأمل ذو النغمة الهادئة الموجهة من غير عنف فى جرس يسترعى الأسماع ويصرف الأنظار، واجتمع الإنذار الشديد القوى ولم يكن ثمة تنافر بين الإنذار الشديد، والتأمل السديد بل كان الانتقال من مقام إلى مقام لا يبدو فيه التباين، وإن كان المقام الثانى إنذارا، وذلك لأن الإنذار كالثمرة للتوجيه بالنسبة لمن لم تهده الآيات، وتوجيه النظرات إلى الكون وما فيه(٣).

وهذه سورة الفاتحة. تأمل كيف تترابط وتتناسق، وتنتقل من معنى إلى معنى، ومن مقصد إلى مقصد، لقد افتتحت متوجة « باسم الله »، ثم انتقل الكلام فيها سريعا إلى الاستدلال على أن الاستعانة إنما هى به تعالى وحده

---

(١) سورة الضحى.

(٢) الغاشية ١٧ — ٢٦

(٣) المعجزة الكبرى — دار الفكر ص ٢٦٣

وذلك بإضافة الاسم إلى لفظ الجلالة الذى هو اسم الذات الجامع لصفات الكمال ، وبوصف لفظ الجلالة بأنه «الرحمن الرحيم» ثم انتقل الكلام إلى إعلان أنه تعالى مستحق المحامد كلها ، مادام أنه المستعان وحده بالدليل ، ثم انتقل الكلام إلى تدعيم هـذا الاستحقاق بأدلة ثلاثة جرت على اسم الجلالة مجرى الأوصاف فى مقام حمده «الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين» ثم انتقل الكلام إلى إعلان وحدانيته فى ألوهيته وربوبيته «إياك نعبد وإياك نستعين» ، مادام أنه هو المعين وحده ومستحق المحامد كلها وحده ، ثم انتقل الكلام فى براعة إلى بيان المطمح الأعلى للإنسان وأن هذا المطمح الأعلى هو الهداية إلى الصراط المستقيم ، وأنه لا سبيل إلى الوصول إلى هذا المطمح عن طريق أحد إلا عن طريق الله وحده بقرينة ماسبق من أدلة التوحيد والتمجيد قبله « اهدنا الصراط المستقيم » ثم انتقل الكلام إلى تقسيم الخلق بالنسبة إلى هذه الهداية ثلاثة أقسام ، تنويها وإغراء على المقصود وتحذيرا وتنفيرا من الوقوع فى نقيض هذا المقصود «صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » وإذا الناس أمام عينيك بين منعم عليه بمعرفة الحق واتباعه ، ومغضوب عليه بمخالفة الحق مع العلم به ، وضال رضى أن يعيش عيشة الأنعام ، فى متاهة الجهالة والحيرة والضلال ، لا يكلف نفسه عناء البحث عن الحق ليتشرف بمعرفته ويسعد باتباعه(١) .

إن الجديد فى لغة القرآن أنه فى كل شأن يتناوله من شؤون القول يتخير له أشرف المواد وأمسها رحما بالمعنى المراد ، وأجمعها للشوارد ، وأقبلها للامتزاج ، ويضع كل مثقال ذرة فى موضعها الذى هو أحق بها وهى أحق به ، بحيث لا يجد المعنى فى لفظه إلا مرآته الناصعة وصورته الكاملة ، ولا يجد اللفظ فى معناه إلا وطنه الأمين ، وقراره المكين ، لا يوما أو بعض يوم ، بل على أن تذهب العصور ، وتجىء العصور ، فلا المكان يريد بساكنه بدلا ولا الساكن يبغى

---

(١) مناهل العرفان جـ٢ ص٣١٦

عن منزله حولا.. وعلى الجملة يحيئك من هذا الأسلوب بما هو المثل الأعلى في صناعة البيان(١) .

براعته فى تصريف القول :

مما امتاز به القرآن الكريم براعته فى تصريف القول، فهو يورد المعنى الواحد بألفاظ مختلفة، وطرق متنوعة، بمقدرة فائقة تنقطع فى حلبتها أنفاس الموهوبين من أرباب الفصاحة وأساطين البلاغة، ومن ذلك :

١ — تعبيره عن طلب الفعل من المخاطبين بالوجوه الآتية :

(أ) الإتيان بصريح مادة الأمر كما فى قوله تعالى « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى »(٢) .

(ب) الإتيان بصيغة فعل الأمر كما فى قوله تعالى: «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى(٣) » .

أو بلام الأمر كما فى قوله تعالى : (ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق(٤)) .

(ح) التعبير بأن الفعل مكتوب على المكلفين، كما فى قوله تعالى:(كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم(٥)) .

---

(١) النبأ العظيم ص ٩٢
(٢) النحل ٩٠
(٣) البقرة الآية ٢٣٨
(٤) الحج ٢٩
(٥) البقرة الآية ١٨٣

أو على أنه على الناس كما فى قوله تعالى : ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا[١] .

(د) الإخبار عن المكلف بالفعل المطلوب منه كما فى قوله تعالى : والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء[٢] .

(هـ) الإخبار عن الفعل بأنه خير كما فى قوله تعالى : ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير[٣]. أووصف الفعل بأنه بر ، كما فى قوله تعالى ولكن البر من اتقى[٤] .

(و) ذكر الفعل مقرونا بالشرط كما فى قوله تعالى : فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى[٥] أو مقرونا بالوعد كما فى قوله تعالى : من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له[٦] .

(ز) إيقاع الفعل بعد ترج كما فى قوله تعالى: (لعلكم تشكرون)[٧] .

٢ — تعبيره عن الكف عن الفعل بطرق كثيرة منها :

(أ) الإتيان بصريح مادة النهى كما فى قوله تعالى : وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى[٨] .

(ب) الإتيان بصريح مادة التحريم كما فى قوله تعالى: « إنما حرم ربى الفواحش ماظهر منها ومابطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله

---

(١) آل عمران ٩٧ — (٢) البقرة ٢٢٨
(٣) البقرة ٢٢٠ — (٤) البقرة ١٨٩
(٥) البقرة ١٩٦ — (٦) البقرة ٢٤٥
(٧) الأنفال ٢٦ — (٨) النحل ٩٠

مالم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله مالا تعلمون »(١) .

(ﺟ) نفى الحل عن الفعل كما فى قوله تعالى : لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها (٢).

(د) الإتيان بلا الناهية كما فى قوله تعالى : ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن(٣).

(ﻫ) وصف الفعل بأنه ليس براً كقوله تعالى : وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها(٤) .

(و) ذكر الفعل بأنه شر كما فى قوله تعالى : ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم(٥) ،

(ز) ذكر الفعل مقرونا بالإثم كقوله تعالى : « فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه »(٦) .

(ح) ذكر الفعل مقرونا بالوعيد كقوله تعالى : والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم(٧) .

٣ — تعبيره عن إباحة الفعل بصور متنوعة منها :

(ا) التصريح فى جانبه بمادة الحل كقوله تعالى : أحلت لكم بهيمة الأنعام(٨) .

---

(١) الأعراف ٣٣
(٢) النساء ١٩
(٣) الأنعام ١٥٢
(٤) البقرة ١٨٩
(٥) آل عمران ١٨٠
(٦) البقرة ١٨١
(٧) التوبة ٣٤
(٨) المائدة ١

(ب) الأمر به مع قرينة صارفة عن الطلب كقوله تعالى : « وكلوا واشربوا »(١) .

(ج) نفى الإثم عن الفعل كقوله تعالى : فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه(٢) .

(د) إنكار تحريمه فى صورة الاستفهام كقوله تعالى : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق »(٣) .

وهكذا تجد القرآن الكريم يصوغ المعنى الواحد فى عبارات رائعة مختلفة وبطرق زاهية متعددة .

ومن عجب أنه فى تحويله الكلام من نمط إلى نمط تجده سريعا لايجارى فى سرعته ، ثم هو على هذه السرعة الخارقة لايمشى مكبا على وجهه مضطربا أو متعثرا ، بل هو محتفظ دائما بمكانته العليا من البلاغة .

ولقد خلع هذا التصرف والافتنان لباسا فضفاضا من الجدة والروعة على القرآن ، ومسحه بطابع من الحلاوة والطلاوة ، حتى لا يمـــل قارئه ، ولا يسأم سامعه ، مهما كثرت القراءة والسماع ، بل ينتقل كل منهما من لون إلى لون ، كما ينتقل الطائر فى روضة غناء من فنن إلى فنن ، ومن زهر إلى زهر(٤) .

خطاب العامة وخطاب الخاصة :

امتاز القرآن الكريم بأنه يرضى العامة والخاصة ويجمع رغبة الناس على اختلاف أذواقهم ، فإذا قرأته على العامة أحسوا جلاله وذاقوا حلاوته

---

(١) البقرة ١٨٧ (٢) البقرة ١٧٣
(٣) الأعراف ٣٢ (٤) مناهل العرفان جـ ٢ ص ٣٢٢

وفهموا منه على قدر استعدادهم ما يرضى عقولهم وعواطفهم ، وكذلك الخاصة وليس كذلك كلام البشر، فإنه إن أرضى الخاصة والأذكياء لجنوحه إلى التجوز والإغراب والإشارة لم يرض العامة لأنهم لا يفهمونه ، وإن أرضى العامة لجنوحه إلى التصريح والحقائق العارية المكشوفة لم يرض الخاصة لنزوله إلى مستوى ليس فيه متاع لأذواقهم ومشاربهم وعقولهم[1] .

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز[2] : إن جملة واحدة تلقى إلى العلماء والجهلاء وإلى الأذكياء والأغبياء ، وإلى السوقة والملوك ، فيراها كل منهم مقدرة على مقياس عقله ، وعلى وفق حاجته ، فذلك مالا تجده على أتمه إلا في القرآن الكريم ، فهو قرآن واحد يراه البلغاء أوفى كلام بلطائف التعبير، ويراه العامة أحسن كلام وأقربه إلى عقولهم، لا يلتوي على أفهامهم، ولا يحتاجون فيه إلى ترجمان وراء وضع اللغة، فهو متعة العامة والخاصة على السواء ، ميسر لكل من أراد « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر »[3] .

إقناع العقل وإمتاع العاطفة :

كما امتاز القرآن الكريم بأنه يرضى العقل والعاطفة معاً، ويأسر الفكر والشعور جميعاً ، فلو نظرت فيه بعقلك رضيت واقتنعت . وإن تأملته بعاطفتك سررت وانشرحت، وهذه ميزة لا يمكن أن توجد هكذا في كلام واحد من المخلوقين .

---

(١) مناهل العرفان جـ ٢ ص ٣١٣

(٢) النبأ العظيم ص ١١٣

(٣) القمر ١٧

انظر إلى القرآن وهو يسوق قصة يوسف مثلا كيف يأتى خلالها بالعظات البالغة ، ويطلع من خلالها بالبراهين الساطعة على وجوب الاعتصام بالعفاف والشرف والأمانة إذ يقول : « وراودته التى هى فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون »(١) .

فتأمل هذه الآية كيف قوبلت دواعى الغواية الثلاث بدواعى العفاف الثلاث مقابلة صورت من القصص الممتع جدالا عنيفاً بين جند الرحمن وجند الشيطان ووضعتهما أمام العقل المنصف فى كفتى ميزان ، وهكذا تجد القرآن كله مزيجاً حلواً سائغاً ، يخفف على النفوس أن تجرع الأدلة العقلية ، ويرفه عن العقول بالفتات العاطفية ، ويوجه العقول والعواطف معاً جنباً إلى جنب لهداية الإنسان وخير الإنسان(٢).

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز :

لقد عرفنا كلام العلماء والحكماء ، وعرفنا كلام الأدباء والشعراء ، فما وجدنا من هؤلاء ولا هؤلاء إلا غلواً فى جانب وقصوراً فى جانب ، فأما الحكماء فإنما يؤدون إليك ثمار عقولهم غذاء لعقلك ، ولا تتوجه نفوسهم إلى استهواء نفسك واختلاب عاطفتك، فتراهم حين يقدمون إليك حقائق العلوم لا يأبهون لما فيها من جفاف وعرى وتبو عن الطباع ، وأما الشعراء فإنما يسعون إلى استثارة وجدانك ، وتحريك أوتار الشعور من نفسك ، فلا يبالون بما صوروه لك أن يكون غيا أو رشداً ، وأن

---

(١) يوسف ٢٣

(٢) انظر إعجاز القرآن الدكتور السيد محمد الحكيم ص ٨٠ ، ومناهل العرفان جـ ٢ ص ٣١٤

يكون حقيقة أو تخيلا ، فتراهم جادين وهم هازلون ، يستبكون وإن كانوا لا يبكون .

أما أن أسلوباً واحداً يتجه اتجاهاً واحداً ، ويجمع فى يديك هذين الطرفين معاً ، كما يحمل الغصن الواحد من الشجرة أوراقاً وأزهاراً وأثماراً معاً ، أو كما يسرى الروح فى الجسد والماء فى العود الأخضر ، فذلك مالا تظفر به فى كلام بشر ، ولا هو من سنن الله فى النفس الإنسانية .

فمن لك إذاً بهذا الكلام الواحد الذى يجىء من الحقيقة البرهانية الصارمة بما يرضى حتى أولئك الفلاسفة المتعمقين .

ومن المتعة الوجدانية الطيبة بمـــا يرضى حتى هؤلاء الشعراء المرحين ؟ .

ذلك الله رب العالمين .

فهو الذى لا يشغله شأن عن شأن ، وهو القادر على أن يخاطب العقل والقلب معاً بلسان ، وأن يمزج الحق والجمال معاً يلتقيان ولا يبغيان ، وأن يخرج من بينهما شراباً خالصاً سائغاً للشاربين ، وهذا هو ماتجده فى كتابه الكريم حيثما توجهت .

ألا تراه فى فسحة قصصه وأخباره ، لا ينسى حق العقل من حكمة وعبرة ؟ .

اقرأ مثلا قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى : الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ، ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم[1] .

---

(١) البقرة ١٧٨

وانظر الاستدراج إلى الطاعة فى افتتاح الآية بقوله : (يا أيها الذين آمنوا) وترقيق العاطفة بين الوارثين والموروثين فى قوله : «أخيه» وقوله «بإحسان» ، والامتنان فى قوله : «تخفيف من ربكم ورحمة» والتهديد فى ختام الآية ، ثم انظر فى أى شأن يتكلم ؟ أليس فى فريضة مفصلة وفى مسألة دموية ؟ وتتبع هذا المعنى فى سائر آيات الأحكام حتى أحكام الإيلاء والظهار، ففى أى كتاب من كتب التشريع تجد مثل هذا الروح؟ بل فى أى لسان تجد هذا المزاج العجيب ؟(١) .

الوفاء بالمعنى مع القصد فى اللفظ :

امتاز القرآن الكريم بقصده فى اللفظ مع وفائه بالمعنى ، وهذه ميزة أخرى تتبين فيها البلاغة وتعظم بها الفصاحة ، ويرتقى بها الأسلوب إلى الحد المعجز وأى بليغ فى الدنيا يستطيع أن يستثمر ألفاظ الكلام العربى كما استثمرها القرآن الكريم ؟ إذ أن البليغ إذا أوفى المعنى حقه أكثر من الألفاظ المترادفة والجمل المكررة ، خشية أن يفوته شىء من المعنى الذى أراد توفيته ، وإذا وفى اللفظ حقه وحذف فضوله واقتصر فيه ، عاد ذلك على المعنى بالخفاء أو القصور ، ولو وفق بليغ لتلك الميزة فى جملة أو أكثر فإن الكلال والإعياء يلحقانه فيما يستقبله من الكلام ، ومن حظى بذلك فى باب عجز عنه فى غيره .

أما هذا القرآن العظيم فإنه على قصده فى اللفظ قد وفى بالمعنى بحيث أخذ كل منهما حقه ، ونال حظه ، فكان على قلة ألفاظه جامعا تلك العلوم

(١) النبأ العظيم ص ١١٤

الوفيرة والمعارف الجليلة والمقاصد العالية التى يحتاج إليها البشر فى الدين والدنيا معاً[١] .

اقرأ قوله تعالى « والله يرزق من يشاء بغير حساب »[٢] وانظر هل ترى كلاما أبين من هـذا فى عقول الناس ؟ ثم انظركم فى هذه الكلمة من مرونة ، فإنك لو قلت فى معناها : إنه سبحانه يرزق من يشاء بغير محاسب يحاسبه ولا سائل يسأله لماذا يبسط الرزق لهؤلاء ويقدره على هؤلاء أصبت ولو قلت إنه يرزق من يشاء بغير تقتير ولا محاسبة لنفسه عند الإنفاق خوف النفاد أصبت ، ولو قلت إنه يرزق من يشاء من حيث لا يحتسب ولا يحتسب أصبت ، ولو قلت إنه يرزق بغير معاتبة ومناقشة له على عمله أصبت ، ولو قلت يرزقه رزقا كثيرا لا يدخل تحت حصر وحساب أصبت .

فعلى الأول يكون الكلام تقريراً لقاعدة الأرزاق فى الدنيا وأن نظامها لا يجرى على حسب ما عند المرزوق من استحقاق بعلمه أو عمله ، بل تجرى وفقا لمشيئته وحكمته سبحانه فى الابتلاء ، وفى ذلك ما فيـــه من التسلية لفقراء المؤمنين ومن الهضم لنفوس المغرورين من المترفين .

وعلى الثانى يكون تنبيها على سعة خزائنه وبسطة يده جل شأنه .

وعلى الثالث يكون تلويحا للمؤمنين بما سيفتح الله لهم من أبواب النصر والظفر حتى يبدل عسرهم يسراً ، وفقرهم غنى من حيث لا يظنون .

وعلى الرابع والخامس يكون وعداً للصالحين إما بدخولهم الجنة بغير حساب ، وإما بمضاعفة أجورهم أضعافا كثيرة لا يحصيها العد[٣]

---

(١) اعجاز القرآن للدكتور السيد محمد الحكيم ص ٧٤
(٢) البقرة الآية ٢١٢
(٣) النبأ العظيم ص ١١٧

وانظر في قوله تعالى « ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا. وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجا »(١) .

فهذه الآية سمعها العرب فبعضهم يفهم من نسقها أن القمر نور والشمس نور ، ولكن اختلفا اللفظان ليكون في ذلك تنويع بليغ .

ويعلو آخر عن هذه المنزلة فيفهم أن القمر أضعف نوراً من الشمس لأن هذه عبر عنها بالسراج ، ولفظ السراج يحضر في النفس شعاعه المتقد فكأنه نور منبعث من نار ، ويدقق بعضهم فيرى أن الغرض هو التعبير عن الشمس بأنها تجمع إلى النور الحرارة ولذلك فائدة في الحياة ، ولهذه فائدة أخرى ، والنور نفسه لا تكاد تحس فيه الحرارة ، بل إنما تحس في السراج ووهجه .

ثم يفهم أهل العلوم الحديثة مع كل هذه الوجوه أن المراد من الآية إثبات ما كشفته هـــذه العلوم ، من أن القمر جرم مظلم ، وإنما يضيء بما ينعكس عليه من نور الشمس التي هي « سراجه » إذ النور لا يكون من ذات نفسه ابتداء ، ولا بد من مصدر يبعثه ، فذكر السراج بعد النور دليل على أن هذا مصدره ذاك .

فتأمل : أيمكن أن يكون هذا في طاقة رجل من العرب منذ ثلاثة عشر قرناً في تلك الجزيرة ؟ وإذا هو كان في طبيعته ، وكان ينظر إلى حقيقة المعنى العلمي – مع أن هذا المعنى لم يعرفه المفسرون في استبحار التمدن الإسلامي – فهل كانت تجيء العبارة إلا على الأصل الذي في نفسه فتخرج صريحة في المعنى ، كما هي طبيعة الكلام الإنساني ؟(٢)

وانظر – أيضاً – إلى قوله تعالى : « ولكم في القصاص حياة »(٣) فإن معناه كثير ولفظه قليل . لأن معناه أن الإنسان إذا علم أنه متى قَتل قُتل كان ذلك

---

(١) نوح ١٥ ، ١٦ (٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٢٣٦
(٣) البقرة ١٧٩

داعيا إلى ألا يقدم على القتل، فارتفع بالقتل الذى هو القصاص كثير من قتل الناس بعضهم البعض ، وكان ارتفاع القتل حياة لهم ، وقد فضلت هذه الجملة على أوجز ما كان عند العرب فى هذا المعنى وهو قولهم « القتل أنفى للقتل » بوجوه كثيرة منها :

١ — الإيجاز فى العبارة لحروف « القصاص حياة » عشرة ، وحروف « القتل أنفى للقتل » أربعة عشر حرفا .

٢ — نفى القتل لا يستلزم الحياة والآية ناصة على ثبوتها التى هى الغرض المطلوب منه .

٣ — تنكير الحياة يفيد تعظيما وليس كذلك المثل .

٤ — الآية فيه مطردة بخلاف المثل فإنه ليس كل قتل أنفى للقتل .

٥ — الآية خالية من تكرار لفظ « القتل » الواقع فى المثل، والخالى من التكرار أفضل من المشتمل عليه وإن لم يكن مخلا بالفصاحة .

٦ — الآية مستغنية عن تقدير محذوف بخلاف قولهم .

٧ — فى الآية طباق لأن القصاص يشعر بضد الحياة بخلاف المثل .

٨ — الآية جعلت القصاص كالمنبع للحياة والمعدن لها بإدخال «فى» عليه

٩ — فى المثل توالى أسباب كثيرة خفيفة « السكون بعد الحركة » وذلك مستكره .

١٠ — المثل كالتناقض من حيث الظاهر لأن الشىء لا ينفى نفسه .

١١ — سلامة الآية من تكرير قلقلة القاف الموجب للضغط والشدة وبعدها عن غنة النون .

١٢ — اشتمال الآية على حروف متلائمة لما فيها من الخروج من القاف

إلى الصاد بخلاف الخروج من القاف إلى التاء فهو غير ملائم وكذا الخروج من الصاد إلى الحاء أحسن من الخروج من اللام إلى الهمزة لبعد ما دون طرف اللسان وأقصى الحلق .

١٣ — فى النطق بالصاد والحاء والتاء حسن الصوت ، وليس كذلك تكرير القاف والتاء .

١٤ — سلامتها من لفظ القتل ، المشعر بالوحشة بخلاف لفظ الحياة .

١٥ — لفظ القصاص مشعر بالمساواة فهو منبىء عن العدل بخلاف مطلق قتل .

١٦ — الآية مبنية على الإثبات والمثل على النفى ، والإثبات أشرف لأنه أول والنفى ثان عنه .

١٧ — المثل لا يكاد يفهم إلا بعد فهم أن القصاص هو الحياة ، وقوله « القصاص حياة » مفهوم من أول وهلة .

١٨ — فى المثل بناء أفعل التفضيل من فعل متعد والآية سالمة منه .

١٩ — أفعل فى الغالب يقتضى الاشتراك فيكون ترك القصاص نافياً للقتل ، ولكن القصاص أكثر نفياً ، وليس الأمر كذلك ، والآية سالمة من ذلك .

٢٠ — الآية رادعة عن القتل والجرح معاً لشمول القصاص لهما ، والحياة أيضاً فى قصاص الأعضاء لأن قطع العضو ينقص أو ينقص مصلحة الحياة ، وقد يسرى إلى النفس فيزيلها ، وليس كذلك المثل ، وفى أول الآية « ولكم » وفيها لطيفة وهى بيان العناية بالمؤمنين على الخصوص وأنهم المراد حياتهم لا غيرهم لتخصيصهم بالمعنى مع وجوده فيمن سواهم .

وانظر إلى قوله تعالى : خذ العفو وأمر بالعروف وأعرض عن الجاهلين(١) .

فإنها جامعة لمكارم الأخلاق لأن فى أخذ العفو التساهل والتسامح فى الحقوق واللين والرفق فى الدعاء إلى الدين وفى الأمر بالمعروف كف الأذى وغض البصر وما شاكلهما من المحرمات ، وفى الإعراض الصبر والحلم والتؤدة ، ومن بديع الإيجاز أيضاً ، قوله تعالى : « وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر ، واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين»(٢) .

فقد أمر الله فيها ونهى ، وأخبر ونادى ، ونعت وسمى ، وأهلك وأبقى ، وأسعد وأشقى . وقص من الأنباء مالوشرح ما اندرج فى هذه الجملة من بديع اللفظ والبلاغة والإيجاز والبيان لجفت الأقلام(٣) .

وقد روى أن الأصمعى خرج ذات يوم فلقى جارية ، وسمعها تنشد أبياتا من الشعر رائعة ، فأعجب بتلك الأبيات وهزت منه النفس والقلب بجمال أسلوبها وروعة بيانها وفصاحة ألفاظها فقال لها : قاتلك الله ماأفصحك فقالت له ويحك أيعد هذا فصاحة بعد قول الله تبارك وتعالى : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه، فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين» (٤) .

ثم قالت له : فقد جمعت هذه الآية على وجازتها بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين .

---

(١) الأعراف ١٩٩ (٢) هود ٤٤

(٣) الإتقان فى علوم القرآن ج ٣ ص ٥٤ ، ٥٥

(٤) القصص ٧

قال الأصمعي : فأعجبت بفهمها وإدراكها أكثر مما أعجبت بشعرها ، فهي جارية بدوية صغيرة السن ، ولكنها واسعة الفهم والعلم .

والآية الكريمة جمعت بين أمرين وهما : « أرضعيه » و « ألقيه في اليم » ونهيين وهما : « لا تخافي » و « لا تحزني » وخبرين وهما : « أوحينا » و « خفت » و « بشارتين وهما : « إنا رادوه إليك » و « جاعلوه من المرسلين » فالبشارة الأولى برده إليها سالما كريما ، والبشارة الثانية ، وهي أن الله سبحانه وتعالى سيجعله رسولا هاديا .

فانظر — رعاك الله — كيف أدركت هذه البدوية بفطرتها العربية سراً من أسرار هذا الإيجاز والإعجاز ، وانتهت إلى ما لم يدركه هو من أسرار القرآن ، فكأن الآية نظمت في عقد من اللؤلؤ والمرجان ، فكانت لآلئها بميزان(١) .

هذا : وهناك وجوه كثيرة للإعجاز القرآني منها : الإخبار عن المغيبات ، والإعجاز التشريعي ، والإعجاز العلمي والإعجاز الطبي والإعجاز الفكري ، وسلامته من التناقض والتعارض ، وصيغته بالقلوب ، وتأثيره في النفوس ، وغير تلك الوجوه كثير وكثير .

ولا يزال الزمن يكشف عن أسرار إعجاز القرآن الكريم ، وهذه الأسرار التي ذكرها العلماء ، واكتشفها الباحثون ، واهتدى إليها ذوو البصائر النيرة ، ما هي إلا قطرة من بحر علوم القرآن ، ومهما اتسع القول ، وعظم البيان ، فإن كلام الله تعالى لا يحيط به أحد ، كما لا يحيط أحد بعظمة ذاته ، وجليل صفاته .

يقول الرافعي : ما أشبه القرآن الكريم في تركيب إعجازه ، وإعجاز

---

(١) انظر تفسير القرطبي ط دار الشعب ٤٩٦٨ ، والتبيان في علوم القرآن ص ١١٤

تركيبه بصورة كلامية من نظام هذا الكون الذى اكتنفه العلماء من كل جهة ، وتعاوروه من كل ناحية ، وأخلقوا جوانبه بحثا وتفتيشا ، ثم هو بعد لا يزال عندهم خلقا جديدا ، ومراما بعيدا ، وصعبا شديدا ، وإنما بلغوا منه إذ بلغوا نزراً تهيأت لضعفه أسبابه ، وقليلا عرف لقلته حسابه ، وبقى ماوراء ذلك من الأمر المتعذر الذى وقفت عنده الأعذار ، والأشياء المعجز الذى انحط عنده قدر الإنسان لأنه مما سمت به الأقدار (١) .

---

(١) انظر : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعى ط السابعة سنة ١٩٦١ ص ١٥٧ ، ومناهل العرفان ج ٢ ص ٣٠٩ ، والبيان فى إعجاز القرآن ، والنكت فى إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل فى الإعجاز .

وانظر أيضا : المعجزة الكبرى ٧٣ وما بعدها ، وإعجاز القرآن للباقلانى ص ٢٣ وما بعدها ، ومن بلاغة القرآن ٤٧ وما بعدها . والإتقان فى علوم القرآن ص ١١٦ - ١٢٥ والإعجاز الطبى ، والإعجاز الفكرى للدكتور السيد الجميلى ، والإعجاز التشريعى والإعجاز العلمى لمحمد اسماعيل إبراهيم ، ومعجزة القرآن للشيخ محمد متولى الشعراوى ، وشواهد العلم فى هدى القرآن لمحمد سعدى المقدم ، ودراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة لموريس بوكاى ، ومعجزة القرآن لنعمت صدقى ، وإعجاز القرآن لأحمد حجازى السقا ، والإعجاز فى دراسات السابقين لعبد الكريم الخطيب ، وبديع القرآن لابن أبى الأصبع ، ومن أسرار التعبير القرآنى للدكتور محمد أبو موسى . ومن مباحث علوم القرآن للشيخ مناع القطان .

شبهة القول بالصرفة

من الباحثين من يذهب إلى القول بأن وجه إعجاز القرآن هو «الصرفة» أى صرف الله العرب عن معارضته على حين أنه لم يتجاوز فى بلاغته مستوى طاقتهم البشرية .

وضربوا لذلك مثلا فقالوا : إن الإنسان كثيرا ما يترك عملا هو من جنس أفعاله الاختيارية ، ومما يقع مثله فى دائرة كسبه وقدرته ، إما لأن البواعث على هذا العمل لم تتوافر ، وإما لأن الكسل أو الصدود أصابه ، فأقعد همته ، وثبط عزيمته ، وإما لأن حادثا مفاجئا لا قبل له به قد اعترضه فعطل آلاته ووسائله ، وعاق قدرته قهرا عنه ، على رغم انبعاث همته نحوه ، وتوجه إرادته إليه .

فكذلك انصراف العرب عن معارضتهم للقرآن ، لم ينشأ من أن القرآن بلغ فى بلاغته حد الإعجاز الذى لا تسمو إليه قدرة البشر عادة ، بل لواحد من ثلاثة :

١ — أن بواعث هذه المعارضة ، ودواعيها لم تتوافر لديهم .

٢ — أن صارفا إلهيا زهدهم فى المعارضة ، فلم تتعلق بها إرادتهم ، ولم تنبعث إليها عزائمهم ، فتكاسلوا وقعدوا على رغم توافر البواعث والدواعى .

٣ — أن عارضا مفاجئا عطل مواهبهم البيانية ، وعاق قدرتهم البلاغية وسلبهم أسبابهم العادية على رغم تعلق إرادتهم بها ، وتوجه همتهم إليها .

وينسب هذا القول إلى النظام من المعتزلة ، وبالتأمل فى هذه الفروض الثلاثة يظهر أن المقصود بهذا القول بيان أن عدم معارضة القرآن لم تجىء من ناحية إعجازه — على هذا الزعم — بل جاءت على الفرضين الأولين

من ناحية عدم اكتراث العرب بهذه المعارضة ، ولو أنهم حاولوها لنالوها، وجاءت على الفرض الأخير من ناحية عجزهم عنها لكن بسبب خارجي عن القرآن ، وهو وجود مانع منعهم منها قهرا ، ذلك المانع هو حماية الله لهذا الكتاب ، وحفظه إياه من معارضة المعارضين وإبطال المبطلين ، ولو أن هذا المانع زال لجاء الناس بمثله لأنه لا يعلو على مستواهم في بلاغته ونظمه .

وهذا القول بفروضه التي افترضوها ، أو بشبهاته التي تخيلوها باطل ، لا يثبت أمام البحث ، ولا يتفق والواقع ، وإليك البرهان :

أما الفرض الأول : فينقضه ما سجله التاريخ ، وأثبته التواتر ، من أن دواعي المعارضة كانت قائمة موفورة ، ودوافعها كانت ماثلة وذلك لأدلة كثيرة :

منها : أن القرآن تحداهم غير مرة أن يأتوا ، ولو بمثل أقصر سورة منه ثم سجل العجز عليهم ، وأخبر بلغة الواثق : أنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا ، ولن يفعلوا ، ولو ظاهرهم الإنس والجن ، فكيف لاتثور حميتهم إلى المعارضة بعد هذا . ولو كانوا أجبن خلق الله ؟

ومنها : أن العرب الذين تحداهم القرآن كانوا مضرب المثل في الحمية والأنفة وإباء الضيم ، فكيف لا يحركهم هذا التحدي والاستفزاز ؟

ومنها : أن صناعتهم البيان ، وديدنهم التنافس في ميدان الكلام ، فكيف لا يطيرون بعد هذه الصيحة إلى حلبة المساجلة ؟

ومنها : أن القرآن أثار حفائظهم ، وسفه عقولهم وعقول آبائهم ، ونعى عليهم الجمود والجهالة والشرك ، فكيف يسكتون بعد هذا التقريع والتفنيع ؟

ومنها : أن القرآن أقام حربا شعواء على أعز شيء لديهم ، وهي عقائدهم المتغلغلة فيهم ، وعاداتهم المتمكنة منهم ، فأي شيء يلهب المشاعر ويحرك الهمم إلى المساجلة أكثر من هذا ؟ ما دامت المساجلة هي السبيل المتعين لإسكات خصمهم لو استطاعوا .

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز : إن الأسباب الباعثة على المعارضة كانت موفورة متضافرة ، وأي شيء أقوى في استثارة حمية خصمك من ذلك التقريع البليغ المتكرر الذي توجهه إليه معلنا فيه عجزه عن مضاهاة عملك ؟

إن هذا التحدي كاف وحده في إثارة حفيظة الجبان وإشعال همته للدفاع عن نفسه بما تبلغه طاقته ، فكيف لو كان الذي تتحداه مجبولا على الأنفة والحمية ؟.

وكيف لو كان العمل الذي تتحداه به هو صناعته التي بها يفاخر ، والتي هو فيها المدرب الماهر ؟

وكيف لو كنت مع ذلك ترميه بسفاهة الرأي وضلال الطريق ؟

وكيف لو كنت تبغي من وراء هذه الحرب الجدلية هدم عقائده ، ومحو عوائده ، وقطع الصلة بين ماضيه ومستقبله ؟(١) .

وأما الفرض الثاني : فينقضه الواقع التاريخي أيضا ، ودليلنا على هذا ما تواترت به الأنباء من أن بواعث العرب إلى المعارضة قد وجدت سبيلها إلى نفوسهم ، ونالت منالها من عزائمهم ، فهبوا هبة رجل واحد ، يحاولون القضاء على دعوة القرآن بمختلف الوسائل ، فلم يتركوا طريقا إلا سلكوه ولم يدعوا بابا إلا دخلوه .

---

(١) النبأ العظيم ص ٨٦

لقد آذوه ﷺ ، وآذوا أصحابه ، فسبوا من سبوا ، وعذبوا من عذبوا وقتلوا من قتلوا .

ولقد طلبوا من عمه أبي طالب أن يكفه ، وإلا نازلوه وإياه .

ولقد قاطعوه ، وقاطعوا أسرته الكريمة ، لا يبيعون لهم ، ولا يبتاعون ولا يتزوجون منهم ولا يزوجون ، واشتد الأمر حتى أكلت الأسرة الكريمة ورق الشجر .

ولقد فاوضوه أثناء هذه المقاطعة التي تلين الحديد ، مفاوضات عدة ، وعرضوا عليه عروضا سخية مغرية منها : أن يعطوه حتى يكون أكثرهم مالا ، وأن يعقدوا له لواء الزعامة ، فلا يقطعوا أمرا دونه ، وأن يتوجوه ملكا عليهم ، إن كان يريد ملكا ، وأن يلتمسوا له الطب إن كان به مس من الجن .

كل ذلك في نظير أن يترك هذا الذي جاء به ، ولما أبى عليهم ذلك عرضوا عليه أن يهادنهم ويداهنهم فيعبد آلهتهم سنة ، ويعبدون إلهه سنة ، فأبى أيضا ونزل قول الله تعالى: «قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون(١)» ونزلت كذلك سورة الكافرون .

ولقد ناصبوه ، كما ناصبوا أصحابه العداء في عبادتهم ، وانبعث شقي منهم فوضع النجاسة على ظهره ﷺ وهو يصلي ، كما خنقه طاغية من طواغيتهم لولا أن أبا بكر رضي الله عنه جاء فدفعه عنه وقال : « أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وإن يك كاذبا فعليه كذبه »(٢) .

---

(١) الزمر ٦٤ .
(٢) غافر ٢٨

ولقد اتهموه ﷺ مرة بالسحر ، وأخرى بالشعر ، وثالثة بالجنون ، ورابعة بالكهانة ، وكانوا يتعقبونه وهو يعرض نفسه على قبائل العرب أيام الموسم فيبهتونه ويكذبونه أمام من لا يعرفونه .

ولقد شددوا وطأتهم على أتباعه حتى اضطروهم أن يهاجروا من وطنهم ويتركوا أهليهم وأولادهم وأموالهم فرارا من الله بدينهم .

ولقد تآمروا على الرسول ﷺ أن يثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه ، لولا أن حفظه الله ، وحماه من مكرهم ، ورد كيدهم إلى نحورهم ، وأمره بالهجرة من بينهم « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين »(1) .

فهل يرضى عاقل لنفسه أن يقول بعد ذلك كله : إن العرب كانوا مصروفين عن معارضة القرآن ، وأنهم كانوا مخلدين إلى العجز والكسل قاعدين في النزول إلى هذا الميدان .

وهل يصح مع هذا كله أن يقال : إنهم كانوا في تشاغل عن القرآن غير معنيين به ولا آبهين له ؟

وإذا كان أمر القرآن لم يحركهم ، ولم يسترع انتباههم ، فلماذا كانت جميع هذه المهاترات والمصاولات ؟ مع أن خصمهم الذين يزعمون خصومته قد قصر لهم المسافة ودلهم على أن سبيلهم إلى إسكاته هو أن يأتوا بمثل أقصر سورة مما جاءهم به ؟

أليس ذلك دليلا ماديا على أن قعودهم عن معارضة القرآن ليس إلا بسبب شعورهم بعجزهم عن هذه المعارضة ، واقتناعهم بإعجاز القرآن ؟

---

(1) الأنفال ٣٠

وإلا فلماذا آثروا الملاكمة على المكالمة ، والمقارعة بالسيوف على المعارضة بالحروف(١) ؟

وأما الفرض الثالث فاسد . وفي ذلك يقول الباقلاني : « ومما يبطل ما ذكروه من القول « بالصرفة » أنه لو كانت المعارضة ممكنة ، وإنما منع منها « الصرفة » لم يكن الكلام معجزاً ، وإنما يكون المنع هو المعجز ، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه .

وليس هذا بأعجب مما ذهب إليه فريق منهم : أن الكل قادرون على الإتيان بمثله ، وإنما يتأخرون عنه لعدم العلم بوجه ترتيب لو تعلموه لوصلوا إليه به »(٢) .

كما يقول القرطبي معلقا على القول بالصرفة : وهذا فاسد ، لأن إجماع الأمة أن القرآن هو المعجز ، فلو قلنا : إن المنع والصرفة هو المعجز لخرج القرآن عن أن يكون معجزا ، وذلك خلاف الإجماع .

وإن كان كذلك ، علم أن نفس القرآن هو المعجز ، لأن فصاحته وبلاغته أمر خارق للعادة ، إذ لم يوجد قط كلام على هذا الوجه ، فلما لم يكن ذلك الكلام مألوفا معتادا منهم ، دل على أن المنع والصرفة لم يكن معجزا(٣) .

كما أنه لو صح القول بالصرفة لكان ذلك « تعجيزاً » لا « إعجازا » لأنه حينئذ يشبه ما لو قطعنا لسان إنسان ، ثم كلفناه بعد ذلك بالكلام ، فهذا ليس من باب العجز ، وإنما هو من باب التعجيز .

---

(١) مناهل العرفان جـ ٢ صـ ٣١٢

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني دار المعارف ط الرابعة صـ ٣٠

(٣) تفسير القرطبي ط دار الشعب صـ ٦٩ .

ألقاه في اليم مكتوفا وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء

هذا إلى جانب ما هو معروف من أن العرب حين خوطبوا بالقرآن قعدوا عن معارضته اقتناعا بإعجازه ، وعجزهم الفطرى عن مساجلته ، ولو أن عجزهم هذا كان لطارىء مباغت عطل قواهم البيانية ، لأثر عنهم أنهم حاولوا المعارضة بمقتضى تلك الدوافع القوية التى أشرنا إليها ، ففوجئوا بما ليس فى حسبانهم ، ولكان ذلك مثار عجب لهم ، ولأعلنوا ذلك فى الناس ، ليلتمسوا العذر لأنفسهم وليقللوا من شأن القرآن فى ذاته ، ولعمدوا إلى كلامهم القديم فعقدوا مقارنة بينه وبين القرآن ، ينقضون بها من مقام القرآن وإعجازه ، ولكانوا بعد نزول القرآن أقل فصاحة وبلاغة منهم قبل نزوله ، وكل هذه اللوازم باطلة فبطل ما استلزمها وهو القول بالصرفة .

يقول الباقلانى : لو كانوا صرفوا على ما ادعاه ، لم يكن من قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عما كان يعدل به فى الفصاحة والبلاغة وحسن النظم وعجيب الرصف ، لأنهم لم يتحدوا إليه ، ولم تلزمهم حجته .

فلما لم يوجد فى كلام من قبله مثله ، علم أن ما ادعاه القائل « بالصرفة » ظاهر البطلان(١) .

ثم لو كان هذا العارض المفاجىء صحيحا لأمكن البلغاء — بعد زمن التحدى — أن يأتوا بمثله ، ولكن شيئا من ذلك لم يكن ، فقد أتى جهابذة الكلام بعده بما فى وسعهم أن يأتوا ، واهتدى العلماء إلى تبيين أسباب الجمال فى القول ، ولكن لم يستطع أحد أن يدنو من هذا المكان البعيد ،

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٣٠

أو يقارب هذا الأفق المتسامى ، وكلما اهتدوا إلى سر من أسرار الفصاحة ازدادوا إيمانا بالضعف والعجز أمام كتاب الله(١) .

وهل يصح للإنسان يحترم نفسه وعقله أن يصدق بمثل هذا الافتراء «القول بتعطيل المواهب والحواس» بعد أن يستمع إلى شهادة ألد الأعداء من صناديد قريش ، وهو «الوليد بن المغيرة» حين قال كلمته المشهورة «والله لقد سمعت آنفا كلاما ليس من كلام بشر ، ليس بشعر ولا نثر ولا كهانة ، والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلو وما يعلى عليه . والفضل ما شهدت به الأعداء(٢) .

ثم ألم يكفهم ما فى القرآن من وجوه الإعجاز الكثيرة التى أشرنا إليها فيما سبق ، والتى لا تزال قائمة ماثلة ناطقة إلى يومنا هذا ولا تزيدها الأيام إلا وضوحا وبيانا ؟

على أن الحق لا يعرف بالرجال ، إنما يعرف بسلامة الاستدلال(٣) .

وبعد هذه الحجج الدامغة ، وهذه البراهين الساطعة ، يتبين أن القول بالصرفة فاسد ، وأن الزعم به باطل .

---

(١) من بلاغة القرآن دار نهضة مصر ص ٤٩
(٢) التبيان فى علوم القرآن ص ١٤٧
(٣) مناهل العرفان ج ٢ ص ٣١٥

المفردة القرآنية وحسن اختيارها

كل لفظ فى القرآن الكريم له معنى قائم بذاته ، وفيه إشعاع نورانى يتضافر مع جملته ، وقد امتاز القرآن العظيم بأن كل كلمة فيه قد اختيرت اختياراً بالغاً ، وكل لفظة قد وضعت فى مكانها الذى هو أحق بها وهى أحق به ، بحيث لا يرى الباحث لفظة أولى به منها ، ولا مكانا أولى بها منه ، لا يوماً أو بعض يوم ، بل على أن تمر الأجيال والأحقاب ، واللفظ قار فى مكانه الحصين ، والمعنى ناصع فى لفظه المبين .

والناظر فى كتاب رب العالمين ، يجد مفردات يوحى جرسها بمعناها ، قبل أن يوحى مدلولها اللغوى عليه .

اقرأ قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض »(١) .

وادرس الأداء الفنى الذى قامت به لفظة «اثاقلتم» بكل ما تكونت به من حروف ، ومن صورة تركيب هذه الحروف ، ومن حركة التشديد على حرف «الثاء» والمد بعده ثم مجىء القاف الذى هو أحد حروف القلقلة، ثم التاء المهموسة ، والميم التى تنطبق عليها الشفتان ، ألا تجد نظام الحروف وصورة أداء الكلمة ذاتها أوحت إليك بالمعنى ، قبل أن يرد عليك من جهة المعاجم؟ ألا تلحظ فى خيالك ذلك الجسم المثاقل ، يرفعه الرافعون فى جهد فيسقط فى أيديهم فى ثقل ؟ ألا تحس أن البطء فى تلفظ الكلمة ذاتها يوحى بالحركة البطيئة التى تكون من المثاقل ؟ .

جرب أن تبدل المفردة القرآنية ، وتحل محلها لفظة «تثاقلتم» ألا تحس

---

(١) التوبة ٣٨

أن شيئاً من الخفة والسرعة والنشاط أوحت به «كلمة تثاقلتم» بسبب وصف حروفها ، وزوال الشدة ، وسبق التاء قبل الثاء؟ إذن فالبلاغة تتم في استعمال « اثاقلتم » للمعنى المراد . ولا تكون في تثاقلتم .

واتل حكاية قول هود «أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ، وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم ، أنلزمكموها وأنتم لها كارهون »(١) .

فتحس أن كلمة « أنلزمكموها » تصور جو الإكراه بإدماج كل هذه الضمائر في النطق ، وشد بعضها إلى بعض ، كما يدمج الكارهون مع ما يكرهون ، ويشدون إليه وهم نافرون .

واسمع كلمة «يصطرخون» في الآية «والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ، ولا يخفف عنهم من عذابها ، كذلك نجزي كل كفور . وهم يصطرخون فيها ، ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل »(٢) .

فيخيل إليك جرسها الغليظ غلظ الصراخ المختلط المتجاوب من كل مكان ، المنبعث من حناجر مكتظة بالأصوات الخشنة ، كما تلقى عليك ظل الإهمال لهذا الاصطراخ الذي لا يجد من يهتم به أو يلبيه ، وتلمح من وراء ذلك كله صورة ذلك العذاب الغليظ الذي هم فيه يصطرخون .

وحين يستقل لفظ واحد بهذه الصور كلها ، يكون ذلك فنا من التناسق الرفيع .

---

(١) هود ٢٨
(٢) فاطر ٣٦ ، ٣٧

ومثلها كلمة « عتل » في تمثيل الغليظ الجافي المتنطع في الآية الكريمة « عتل بعد ذلك زنيم »(١) .

ومن الأوصاف التي اشتقها القرآن الكريم ليوم القيامة : « الصاخة » في قوله تعالى : « فإذا جاءت الصاخة »(٢) ، و « الطامة » في قوله تعالى : « فإذا جاءت الطامة الكبرى »(٣) ، والصاخة لفظة تكاد تخرق صماخ الأذن في ثقلها وعنف جرسها ، وشقه الهواء شقاً حتى يصل إلى الأذن صاخا ملحا ، والطامة لفظة ذات دوى وطنين ، تخيل إليك أنها تطم وتعم كالطوفان يغمر كل شيء ويطويه .

وهناك نوع آخر من المفردات القرآنية يرسم صورة الموضـــوع ، لا بجرسه الذي يلقيه في الأذن ، بل بظله الذي يلقيه في الخيال ، وللألفاظ كالعبارات ظلال خاصة يلحظها الحس البصير ، حينما يوجه إليها انتباهه ، وحينما يستدعى صورة مدلولها الحسية . كقوله تعالى : « واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها »(٤) .

فالظل الذي تلقيه كلمة « انسلخ » يرسم صورة عنيفة للتملص من هذه الآيات ، لأن الانسلاخ حركة حسية قوية .

وقوله تعالى « فأصبح في المدينة خائفاً يترقب »(٥) فلفظة « يترقب » ترسم هيئة الحذر المتلفت في المـــدينة التي يشيع فيها الأمن والاطمئنان في العـادة .

---

(١) القلم ١٣
(٢) عبس ٣٣
(٣) النازعات ٣٤
(٤) الأعراف ١٧٥
(٥) القصص ١٨

وقد يشترك الجرس والظل فى مفردة واحدة، كقوله تعالى: «يوم يدعون إلى نار جهنم دعا»(١).

فلفظ الدع يصور مدلوله بجرسه وظله جميعاً، ومما يلاحظ هنا أن «الدع» هو الدفع فى الظهور بعنف، وهذا الدفع فى كثير من الأحيان يجعل المدفوع يخرج صوتاً غير إرادى فيه عين ساكنة هكذا «أع» وهو فى جرسه أقرب ما يكون إلى جرس «الدع»(٢).

وفى القرآن الكريم كثير من الألفاظ، تشع منها قوى توحى إلى النفس بالمعنى وحيا فتشعر به شعوراً عميقاً: وتحس بجو الفكرة إحساساً قوياً.

اقرأ قوله تعالى: «والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس(٣)» تجد الإعجاز فى اختيار الألفاظ لمواضعها، ونهوض هذه الألفاظ برسم الصور على اختلافها، ألا تشم رائحة المعنى قوية من كل من هاتين الكلمتين «عسعس وتنفس»؟ ألا تشعر أن الكلمة تبعث فى خيالك صورة المعنى محسوساً مجسماً دون حاجة للرجوع إلى المعاجم؟ وهل تستطيع أن تصور إقبال ظلام الليل وتمدده فى الآفاق بكلمة أدل من «عسعس»، أو هل تستطيع أن تصور انفلات الضحى من غبأ الليل وسجنه بكلمة أروع من «تنفس»؟ بل هل تجد فى معاجم اللغة أدق من هاتين الكلمتين فى التعبير عن هذين المعنيين(٤)؟

---

(١) الطور ١٣.

(٢) التصوير الفنى ص ٨١، والتعبير الفنى فى القرآن ص ١٨٧، وإعجاز القرآن للدكتور السيد محمد الحكيم ص ٩٣

(٣) التكوير ١٧، ١٨

(٤) من روائع القرآن ص ١٤٢

تأمل ما توحي به كلمة «تنفس» من تصوير هذه اليقظة الشاملة للكون بعد هدأة الليل، فكأنما كانت الطبيعة هاجعة هادئة، لا تحس فيها حركة ولا حياة وكأنما الأنفاس قد خفت حتى لا يكاد يحس بها ولا يشعر، فلما أقبل الصبح صحا الكون، ودبت الحياة في أرجائه.

وخذ قوله تعالى: «لقد تاب الله على النبي والمهاجرين الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم، ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم. وعلى الثلاثة الذين خلفوا، حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم»(١).

وقف عند كلمة «ضاق» في وضاقت عليهم أنفسهم، فإنها توحي إليك بما ألم بهؤلاء الثلاثة من الألم والندم، حتى شعروا بأن نفوسهم قد امتلأت من الندم امتلاء، فأصبحوا لا يجدون في أنفسهم مكانا، يلتمسون فيه الراحة والهدوء فأصبح القلق يؤرق جفنهم، والحيرة تستبد بهم، وكأنما أصبحوا يريدون الفرار من أنفسهم.

واقرأ قوله تعالى: «تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً»(٢) وتبين ما تثيره في نفسك كلمة «تتجافى» من هذه الرغبة الملحة التي تملك على المتقين نفوسهم، فيتألمون إذا مست جنوبهم مضاجعهم، ولا يجدون فيها الراحة والطمأنينة، وكأنما هذه المضاجع قد فرشت بالشوك فلا تكاد جنوبهم تستقر عليها حتى تجفوها، وتنبو عنها.

وقف كذلك عند كلمة «يعمهون» في قوله سبحانه: الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون»(٣)، فإن اشتراك هذه الكلمة مع العمى

---

(١) التوبة ١١٧، ١١٨ (٢) السجدة الآية ١٦

(٣) البقرة ١٥

فى الحروف كفيل بالإيحاء إلى النفس بما فيه هؤلاء القوم من حيرة واضطراب نفس لا يكادون به يستقرون على حال من القلق .

واقرأ الآية الكريمة : «كل نفس ذائقة الموت ، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » (١) .

أفلا تجد فى كلمة « زحزح » ما يوحى إليك بهذا القلق الذى يملأ صدور الناس فى ذلك اليوم ، لشدة اقترابهم من جهنم ، وكأنهم يبعدون أنفسهم عنها فى مشقة وخوف وذعر .

وتوحى إليك كلمة « الراسخون » فى قوله تعالى : فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عنـــد ربنا »(٢) بهذا الثبات المطمئن الذى يملأ قلب هؤلاء العلماء لما ظفروا به من معرفة الحق والإيمان به .

كما توحى كلمة « شنآن » فى قوله سبحانه « ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا »(٣) ، توحى بهذا الجو الذى يملأ الصدر حتى لا يطيق المرء رؤية من يبغضه ، ولا تستسيغ نفسه الاقتراب منه .

كذلك توحى كلمة « مطهرك » من قوله تعالى : « إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا »(٤) بما يشعر به المؤمن بالله نحو قوم مشركين ، اضطر إلى أن يعيش بينهم ، فكأنهم يعدونه برجسهم ، وكأنه يصاب بشىء من هذا الرجس فيطهر منه إذا أنقذ من بينهم(٥) .

---

(١) آل عمران ١٨٥ (٢) آل عمران ٧
(٣) المائدة الآية ٢ (٤) آل عمران ٥٥
(٥) من بلاغة القرآن ص ٦٦ ، ٦٧

وقد أشار الجاحظ إلى دقة أسلوب القرآن فى اختيار ألفاظه إذ يقول: وقد يستخف الناس ألفاظا ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها ، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر فى القرآن الجوع إلا فى موضع العقاب ، أو فى موضع الفقر المدقع ، والعجز الظاهر ، والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع فى حال القدرة والسلامة .

وكذلك ذكر المطر ، لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا فى موضع الانتقام ، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر ، وبين ذكر الغيث ، ولفظ القرآن الذى عليه نزل أنه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع ، وإذا ذكر سبع سموات لم يقل الأرضين ، ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين ، ولا السمع أسماعا ، والجارى على أفواه العامة غير ذلك ، لا يتفقدون من الألفاظ ، ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال(١) .

والقرآن الكريم لا تجد فيه ترادفا ، بل كل كلمة فيه تحمل معنى جديدا ، ولما بين الألفاظ من فروق دقيقة فى دلالتها ، فإنه يستخدم كلا حيث يؤدى معناه فى دقة فائقة ، تكاد بها تؤمن بأن هذا المكان كأنما خلقت له تلك الكلمة بعينها ، وأن كلمة أخرى لا تستطيع توفية المعنى الذى وفت به أختها ، فكل لفظة وضعت لتؤدى نصيبها من المعنى أقوى أداء .

يقول الرافعى : لا جرم أن المعنى الواحد يعبر عنه بألفاظ لا يجزىء واحد منها فى موضعه عن الآخر إن أريد شرط الفصاحة ، لأن لكل لفظ صوتا ربما أشبه موقعه من الكلام ومن طبيعة المعنى الذى هو فيه . والذى تساق له الجملة ، وربما اختلف وكان غيره بذلك أشبه .

فلابد فى مثل نظم القرآن من إخطار معانى الجمل ، وانتزاع كل جملة

---

(١) البيان والتبيين ـ الطبعة الرابعة تحقيق عبدالسلام هارون جـ١ صـ٢٠

ما يلائمها من ألفاظ اللغة ، بحيث لا تند لفظة ، ولا تتخلف كلمة ، ثم استعمال أسهلها رسما بالمعنى ، وأفصحها فى الدلالة عليه ، وأبلغها فى التصوير ، وأحسنها فى النسق ، وأبدعها سناء ، وأكثرها غناء ، وأصفاها رونقا وماء ، ثم اضطراد ذلك فى جملة القرآن على السعة ، وما تضمن من أنواع الدلالة ووجوه التأويل ، ثم إحكامه على ألا مراجعة فيه ولا تسامح ، وعلى العصمة من السهو والخطأ فى الكلمة وفى الحرف من الكلمة حتى يجىء على ما هو كأنه صيغ جملة واحدة فى نفس واحد وقد أديرت معانيها على ألفاظ فى لغات العرب المختلفة فلبستها مرة واحدة ، وذلك ولا ريب مما يفوت كل فوت فى الصناعة ، ولا يدعيه من الخلق فرد ولا جماعة .

ولقد صارت ألفاظ القرآن بطريقة استعمالها ، ووجه تركيبها كأنها فوق اللغة فإن أحداً من البلغاء لا تمتنع عليه فصح هذه العربية متى أرادها ، وهى بعد فى الدواوين والكتب ، ولكن لا تقع له مثل ألفاظ القرآن فى كلامه ، وإن اتفقت له نفس هذه الألفاظ بحروفها ومعانيها ، لأنها فى القرآن تظهر فى تركيب ممتنع فتعرف به ، ولهذا ترتفع إلى نوع أسمى من الدلالة اللغوية أو البيانية التى هى طبيعة فيها ، فتخرج من لغة الاستعمال إلى لغة الفهم ، وتكون بتركيبها المعجز طبقة عقلية فى اللغة(١) .

ومن ثم فقد دعا القرآن الكريم ألا يستخدم لفظ مكان آخر فقال : قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم(٢) .

فهو لا يرى التهاون فى استعمال اللفظ ، ولكنه يرى التدقيق فيه ليدل على الحقيقة من غير لبس ولا تمويه .

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٢٥٦

(٢) الحجرات ١٤

ولما كانت كلمة « راعنا » لها معنى فى العبرية مذموم ، نهى المؤمنين عن مخاطبة الرسول بها فقال : « يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا »(١) فالقرآن شديد الدقة فيما يختار من لفظ يؤدى به المعنى .

استمع إليه فى قوله : « وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ، ويستحيون نساءكم ، وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم »(٢) تجد أنه قد اختار الفعل « ذبح » مصورا به ما حدث ، وضعف عينه للدلالة على كثرة ما حدث من القتل ، ولا تجد ذلك مستفادا إذا وضعنا مكانها كلمة « يقتلون » .

واستمع إلى قوله تعالى : « إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا . فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا »(٣) .

تجد كلمة العبوس قد استعملت أدق الاستعمال لبيان نظرة الكافرين إلى ذلك اليوم ، فإنهم يجدونه عابسا مكفهرا ، وما أشد اسوداده فيه بفقد المرء الأمل والرجاء ، وكلمة « قمطريرا » بثقل طائها مشعرة بثقل هذا اليوم .

وفى كلمتى « النضرة والسرور » تعبير دقيق عن المظهر الحسى لهؤلاء المؤمنين ، وما يبدو على وجوههم من الاشراق ، وعما يملأ قلوبهم من البهجة .

وتأمل تنكير كلمة « حياة » فى قوله تعالى « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة »(٤) فإنه يعبر تعبيراً دقيقا عن حرص هؤلاء الناس على مطلق حياة يعيشونها ، مهما كانت حقيرة القدر ، ضئيلة القيمة ، وعندما أضيفت هذه

---

(١) البقرة الآية ١٠٤
(٢) البقرة الآية ٤٩
(٣) الدهر ١٠ ، ١١
(٤) البقرة الآية ٩٦

الكلمة إلى ياء المتكلم في قوله تعالى : « يا ليتني قدمت لحياتي »[1] عبرت أدق تعبير عن شعور الإنسان يومئذ ، وقد أدرك في جلاء ووضوح أن تلك الحياة الدنيا لم تكن إلا وهما باطلا . وسرابا خادعا ، أما الحياة الحقة الباقية ، فهي تلك التي بعد البعث ، لأنها دائمة لا انقطاع لها ، فلا جرم أن سماها حياته ، وندم على أنه لم يقدم عملا صالحا ينفعه في تلك الحياة[2] .

يقول الرافعي مشيداً بأسلوب القرآن في اختيار كلماته ، ووضعها موضعها المناسب لها « نزلت كلماته منازلها على ما استقرت عليه طبيعة البلاغة ، وما قد يشبه أن يكون من هذا النحو الذي تمكنت به مفردات النظام الشمسي ، وارتبطت به سائر أجزاء المخلوقات صفة متقابلة ، بحيث لو نزعت كلمة منه ، أو أزيلت عن وجهها ، ثم أدير لسان العرب كله على أحسن منها في تأليفها وموقعها وسدادها لم يتهيأ ذلك ، ولا اتسعت له اللغة بكلمة واحدة »[3] .

ومن دقة أسلوب القرآن تمييزه بين معاني الكلمات . يقول السيوطي « كتاب الله تعالى لو نزعت منه لفظة ، ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم يوجد »[4] .

ولذلك تجد التفرقة في الاستعمال بين « يعلمون » و « يشعرون » ففي الأمور التي يرجع إلى العقل وحده أمر الفصل فيها تجد كلمة « يعلمون » صاحبة الحق في التعبير عنها ، أما الأمور التي يكون للحواس مدخل في

---

(١) الفجر ٢٤ (٢) من بلاغة القرآن ص ٥٨
(٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٢٥٤
(٤) الإتقان في علوم القرآن ط الرابعة ١٩٧٨ ج ٢ ص ١٥٢

شأنها فكلمة (يشعرون) أولى بها ، وتأمل كذلك قوله تعالى (ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون)(١) فالسفاهة أمر مرجعه إلى العقل ، وقوله تعالى (فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم)(٢) وقوله تعالى :(أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون)(٣) وقوله تعالى : (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق)(٤) وقوله تعالى : (بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون)(٥) وقوله تعالى : (ويعلمون أن الله هو الحق المبين)(٦) إلى غير ذلك من الآيات .

وتأمل: قوله تعالى :(ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون)(٧) .

فمن الممكن أن يرى الأحياء وأن يحس بهم. وقوله تعالى : (واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبـــل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون)(٨) . فالعذاب مما يشعر به ويحس. وقوله تعالى : (وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض ، قالوا إنما نحن مصلحون ، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون)(٩) وقوله تعالى : قالت نملة : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون)(١٠) وقوله تعالى: (وقالت لأخته قصيه ، فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون)(١١) وغير ذلك كثير .

---

(١) البقرة الآية ١٣
(٢) البقرة الآية ٢٦
(٣) البقرة الآية ٧٧
(٤) الأنعام ١١٤
(٥) الأنبياء ٢٤
(٦) النور ٢٥
(٧) البقرة ١٥٤
(٨) الزمر ٥٥
(٩) البقرة ١١ ، ١٢
(١٠) النمل ١٨
(١١) القصص ١١

واستخدم القرآن كلمة « التراب » ولكنه حين أراد هذا التراب الدقيق الذي لا يقوى على عصف الريح ، استخدم الكلمة الدقيقة وهي الرماد قال : والذين كفروا أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف (١) كما أنه آثر عليها كلمة « الثرى » عندما قال : تنزيلا عن خلق الأرض والسموات العلى . الرحمن على العرش استوى . له ما في السموات وما في الأرض ، وما بينهما وما تحت الثرى (٢) لأنه يريد - على ما يبدو من سياق الآيات الكريمة - الأرض المكونة من التراب وهي من معاني الثرى ، فضلا عما في اختيار الكلمة من المحافظة على الموسيقى اللفظية في فواصل الآيات .

وقد يحتاج المرء إلى التريث والتدبر ليدرك السر في إيثار كلمة على أخرى ، ولكنه لا يلبث أن يجد سمو التعبير القرآني ، فمن ذلك قوله تعالى : قالوا إن هذان لساحران ، يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ، ويذهبا بطريقتكم المثلى ، فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا ، وقد أفلح اليوم من استعلى . قالوا ياموسى إما أن تلقى ، وإما أن نكون أول من ألقى (٣) .

فقد يبدو النظرة العاجلة أن الوجه أن يقال : إما أن تلقى وإما أن نلقى ، وربما توهم أن سر العدول يرجع إلى مراعاة النغم فحسب حتى تتفق الفواصل في هذا النغم ، وذلك ما يبدو بادىء الرأي ، أما النظرة الفاحصة فإنها تكشف رغبة القرآن في تصوير نفسية هؤلاء السحرة ، وأنهم لم يكونوا يوم تحدوا موسى بسحرهم خائفين ، أو شاكين في نجاحهم ، وإنما كان الأمل يملأ قلوبهم ، في نصر مؤزر عاجل . فهم لا ينتظرون ما عسى

---

(١) إبراهيم ١٨
(٢) طه ٤ ، ٥ ، ٦
(٣) طه ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥

أن تسفر عنه مقدرة موسى عندما ألقى عصاه ، بل كانوا مؤمنين بالنصر سواء أألقى موسى أولا ، أم كانوا هم أول من ألقى .

ومن ذلك قوله تعالى : « وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد »(١) فقد يتراءى أن وصف الشقاق ، وهو الخلاف بالقوة أولى من وصفه بالبعد ، ولكن التأمل يدل على أن المراد هنا وصف خلافهم بأنه خلاف تتباعد فيه وجهات النظر إلى درجة يعسر فيها الالتقاء ، ولا يدل على ذلك لفظ غير هذا اللفظ الذى اختاره القرآن .

ومن ذلك قوله تعالى : « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا ، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق »(٢) فربما كانت الفاصلة فى الآية السابقة وهى دالية تجعل من المناسب أن يوصف الفج بالبعد ، فيقال فج بعيد ، ولكن إيثار الوصف بالعمق تصوير لما يشعر به المرء أمام طريق حصر بين جبلين فصار كأن له طولا وعرضا وعمقا(٣) .

واستمع إلى قوله تعالى « ألهاكم التكاثر . حتى زرتم المقابر »(٤) تجد أن المقابر أوثرت على القبور ، للمشاكلة اللفظية بينها وبين التكاثر ، ويحس البلاغيون نسق الإيقاع بها وانسجام الجرس .

لكن وراء هذا الملحظ البلاغى فى النسق اللفظى ملحظا بيانيا اقتضاه المعنى ، فالمقابر جمع مقبرة ، وهى مجتمع القبور ، واستعمالها هنا هو الملائم معنويا لهذا التكاثر دلالة على مصير ما يتكالب عليه المتكاثرون فى حطام الدنيا .. هناك حيث مجتمع الموتى ومحتشد الرمم على اختلاف الأعمار والأجيال والطبقات .

---

(١) البقرة الآية ١٧٦
(٢) الحج ٢٧
(٣) من بلاغة القرآن ص ٥٩
(٤) التكاثر ١ ، ٢

وهذه الدلالة على السعة والعموم والشمول ، لا يمكن أن يقوم بها لفظ القبور جمع قبر .

فبقدر ما بين قبر ومقبرة من تفاوت ، يتجلى البيان القرآني في إيثار المقابر على القبور ، حين يتحدث عن غاية ما يتكاثر فيه المتكاثرون على مر العصور والأجيال(١) .

وتأمل إيثار كلمة « مسكوب » في قوله تعالى « وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين . في سدر مخضود . وطلح منضود . وظل ممدود . وماء مسكوب »(٢) مكان كلمة « غزيرة » ، لأنها أدق في بيان غزارته ، فهو ماء لا يقتصد في استعماله كما يقتصد أهل الصحراء بل هو ماء يستخدمونه استخدام من لا يخشى نفاده (٣) .

واقرأ قوله تعالى : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين إحسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ، ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون . وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون »(٤) .

---

(١) الإعجاز البياني ص ٢٥٥

(٢) الواقعة ٢٧ - ٣١

(٣) من بلاغة القرآن صـ ٦٣

(٤) الأنعام الآيات ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣

يقول السيوطى : فإن الأولى ختمت بقوله :- لعلكم تعقلون - والثانية بقوله لعلكم تذكرون - والثالثة : بقوله لعلكم تتقون - لأن الوصايا التى فى الآية الأولى إنما يحمل على تركها عدم العقل الغالب على الهوى ، لأن الإشراك بالله لعدم استكمال العقل الدال على توحيده وعظمته ، وكذلك عقوق الوالدين لا يقتضيه العقل لسبق إحسانهما إلى الولد بكل طريق ، وكذلك قتل الأولاد بالوأد من الإملاق مع وجود الرازق الحى الكريم ، وكذلك إتيان الفواحش لا يقتضيه عقل ، وكذا قتل النفس لغيظ أو غضب فى القاتل فحسن بعد ذلك يعقلون ، وأما الثانية فتعلقها بالحقوق المالية والقولية ، فإن من علم أن له أيتاما يخلفهم من بعده لا يليق به أن يعامل أيتام غيره إلا بما يحب أن يعامل به أيتامه ، ومن يكيل أو يزن أو يشهد لغيره ، لو كان ذلك الأمر له لم يحب أن يكون فيه خيانة ولا بخس ، وكذلك من وعد لو وُعد لم يحب أن يخلف ، ومن أحب ذلك عامل الناس به ليعاملوه بمثله ، فترك ذلك إنما يكون لغفلة عن تدبر ذلك وتأمله ، فلذلك ناسب الختم بقوله : لعلكم تذكرون ، وأما الثالثة فلأن ترك اتباع شرائع الله الدينية مؤد إلى غضبه وإلى عقابه ، فحسن لعلكم تتقون — أى عقاب الله بسببه .

واقرأ قوله تعالى : وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا ، نخرج منه حبا متراكبا ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، وجنات من أعناب ، والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ، إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون(١) .

---

(١) الأنعام ٩٧، ٩٨، ٩٩

فإنه ختم الأولى بقوله — لقوم يعلمون — والثانية بقوله — لقــوم يفقهون — والثالثة بقوله — لقوم يؤمنون — وذلك لأن حساب النجوم والاهتداء بها يختص بالعلماء فناسب ختمه بيعلمون ، وإنشاء الخلائق من نفس واحــدة ، ونقلهم من صلب إلى رحم ، ثم إلى الدنيا ، ثم إلى حياة وموت ، والنظر في ذلك والفكر فيه أدق ، فناسب ختمه بيفقهون ، لأن الفقه فهم الأشياء الدقيقة ، ولما ذكر ما أنعم الله به على عباده من سعة الأرزاق والأقوات والثمار وأنواع ذلك ناسب ختمه بالإيمان الداعي إلى شكره تعالى على نعمه .

واقرأ قوله تعالى : وما هو بقول شاعر قليلا ماتؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلا ماتذكرون(١) فقد ختمت الأولى بـ « تؤمنون » والثانية بـ «تذكرون» ، ووجهه أن مخالفة القرآن لنظم الشعر ظاهرة واضحة لاتخفى على أحد ، فقول من قال شعر ، كفر وعناد محض فناسب ختمه بقوله : قليلا ماتؤمنون ، وأما مخالفته لنظم الكهان ، وألفاظ السجع ، فيحتاج إلى تذكر وتدبر ، لأن كلا منهما نثر فليست مخالفته له في وضوحها لكل أحد كمخالفته الشعر ، وإنما تظهر بتدبر مافي القرآن من الفصاحة والبلاغة والبدائع والمعاني الأنيقة فحسن ختمه بقوله قليلا ماتذكرون .

واقرأ قوله : هو الذي خلق لكم مافي الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم(٢)»وفي آل عمران « قل إن تخفوا مافي صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ، ويعلم مافي السماوات ومافي الأرض والله على كل شيء قدير(٣) » فإن المتبادر إلى الذهن في آية البقرة الختم بالقدرة وفي آية آل عمران الختم بالعلم ، والجواب أن آية البقرة لما تضمنت الإخبار عن خلق الأرض ، وما فيها على حسب حاجات أهلها ومنافعهم

---

(١) الحاقة ٤١ ، ٤٣

(٢) البقرة الآية ٢٩

(٣) آل عمران ٢٩

ومصالحهم ، وخلق السموات خلقا محكما من غير تفاوت ، والخالق على الوصف المذكور يجب أن يكون عالما بما فعله كليا وجزئيا مجملا ومفصلا، يناسب ختمها بصفة العلم، وآية آل عمران لما كانت في سياق الوعيد على موالاة الكفار وكان التعبير بالعلم فيها كناية عن المجازاة بالعقاب والثواب ناسب ختمها بصفة القدرة .

وتأمل قوله تعالى : إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم(١) فإن قوله « وإن تغفر لهم » يقتضى أن تكون الفاصلة الغفور الرحيم ، وذكر فى حكمته أنه لا يغفر لمن استحق العذاب إلا من ليس فوقه أحد يرد عليه حكمه ، فهو العزيز أى الغالب ، وهو الحكيم الذى يضع الشيء فى محله ، وقد يخفى وجه الحكمة على بعض الضعفاء فى بعض الأفعال فيتوهم أنه خارج عنها وليس كذلك ، فكان فى الوصف بالحكيم احتراس حسن ، أى وإن تغفر لهم مع استحقاقهم العذاب فلا معترض عليك لأحد فى ذلك والحكمة فيما فعلته ، ونظير ذلك قوله تعالى فى سورة التوبة : «أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم(٢) وفى سورة الممتحنة :«واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم»(٣)وفى غافر(٤) «ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم» وفى سورة النور : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم(٥) : فإن بادىء الرأى يقتضى تواب رحيم ، لأن الرحمة مناسبة للتوبة، لكن عبر به إشارة إلى فائدة مشروعية اللعان وحكمته(٦) .

---

(١) المائدة الآية ١١٨

(٢) التوبة ٧١

(٣) الممتحنة ٥

(٤) غافر ٨

(٥) النور ١٠

(٦) انظر الإتقان فى علوم القرآن ص ١٣٠ — ١٣١

وقد أشار إلى السر البلاغى فى اختيار الفاصلة « العزيز الحكيم » الخطيب القزوينى الذى يقول مشيداً بالبلاغة القرآنية : « ومن خفى هذا الضرب قوله تعالى « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » فإن قوله « وإن تغفر لهم » يوهم أن الفاصلة : الغفور الرحيم » ولكن إذا أنعم النظر علم أنه يجب أن تكون ما عليه التلاوة لأنه لا يغفر لمن يستحق العذاب إلا من ليس فوقه أحد يرد عليه حكمه ، فهو العزيز لأن العزيز فى صفات الله هو الغالب من قولهم : عزه يعزه عزا ، إذا غلبه ، ووجب أن يوصف بالحكيم أيضا ، لأن الحكيم من يضع الشىء فى محله والله تعالى كذلك(١) .

كما يقول ابن يعقوب المغربى : « ومن لطيف الختم بالمناسبة وخفيها قوله تعالى : إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » فإن المناسب فى بادىء الرأى هو أن يقال فإنك أنت الغفور الرحيم ، مكان أنت العزيز الحكيم ، وعند التفطن والتأمل الصائب يفهم أن المناسب هو ما ذكر وهو إنك أنت العزيز الحكيم ، وذلك أن المحدث عنهم عصاة يستحقون العقوبة ، والغفران لمن يستحق العقوبة إنما يكون من العزيز أى القاهر الغالب ، الذى لا يعترض على أمره ، إذ العزيز مأخوذ من عز إذا غلب ، ثم لما ذكر أن المغفرة للمذنب إنما تكون من العزيز الغالب الذى لا اعتراض على أمره ناسب زيادة الحكيم دفعا لما يتوهم من أن العفو عن المستحق خال من الحكمة فذكر الحكيم إشارة إلى أن فعله ذلك لحكمة وسر يراعى قهرا وعدلا ، فكأنه يقال إن تعف لهؤلاء المذنبين فأنت أهل لذلك إذ لا اعتراض عليك لعزتك ، ومع ذلك ففعلك لا يخلو عن حكمة ، ولو أخفيت عن الخلق(٢)

---

(١) الإيضاح جـ ٤ ص ١٩

(٢) شرح التخليص جـ ٤ — ٣٠٤

واقرأ قوله تعالى : والذى أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون(١) .

خذ لفظ « أنزل » وتأمل مخارج حروفها فى القرب والبعد ، كيف جاءت بهذا التناسق فى الإيحاء بأمر المنزل ؟ الذى أضفى على جلالة قدره ، وعلو مكانته بناء تلك اللفظة للمجهول ، وأضف إلى تلك اللفظة ما بعدها من ألفاظ فى قوله تعالى (إليك من ربك الحق) وتأمل تلك الإضافة إلى ضمير المخاطب فى لفظة (ربك) ففى ذلك تكريم لمحمد ﷺ ، وسمو بعبوديته لله وحده ، وانظر إلى تعريف (الحق) باللام .

ثم مجيئه ختاما لأمر المنزل وهو القرآن . وراع لفظة (يؤمنون) فى آخر الآية . ما بالها اختيرت على (يعقلون) أو (يتفكرون) ؟ ما ذاك إلا أن الإيمان بهذا ، وبمن نزل من عنده ، وبمن نزل عليه هو مطلب الآية الكريمة ، وفى الذروة من هذا الإيمان المطلوب ، الايمان بالله خالق كل شىء ، وإذاً حسن اختياره (تؤمنون) على غيرها مما ذكر .

واستمع إلى قوله تعالى : (الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر)(٢) .

تأمل لفظة (رفع) لم أوثر التعبير بها على سمك أو بنى أو أسس ، ماذاك إلا لأجل تكامل الصورة العجيبة التى رسمتها الآية عن مشهد هائل فى العلو ، ولفظة (رفع) ينطوى تحتها معنى السمك والبناء والتأسيس فهى أشمل وأوسع فى المعنى وأليق فى وصف هذا البناء المحكم الذى تتراءى فى كنهه العظمة معبرة عنها ظلال (رفع) لا بنى أو أسس أو سمك ، ولا سيما وقد ذكر معها فى السياق لفظ الجلالة .

---

(١) الرعد ١ (٢) الرعد ٢

وخذ من الآية أيضاً لفظة « ترونها » لم عبر بها دون « تنظرونها أو تشاهدونها » ، ذلك لأن صيغة « ترونها » تحمل معنى الرؤية الكاملة التي لا يحجبها ما يبدد النظر بغتة وبسرعة لوجاء التعبير بـ « تنظرونها » أو « تشاهدونها » وإنما الرؤية هنا مسلطة على ملكوت السموات للتدبر والتفكر ، والجمع بين الرؤية الحسية ، والرؤية العلمية المؤدية إلى اليقين ، ولا يفي بهذا المعنى لفظ « تنظرونها » أو « تشاهدونها » .

هذا بالإضافة إلى ما تتسم به لفظة « ترونها » من رقة وسلاسة وسماحة ومثل هذه الصفات مقطوع بوجودها في ألفاظ القرآن مع صفات الفخامة والجزالة والقوة ، فالبحث عنها تحصيل حاصل ، وإنما المهم البحث عن الأسرار التي بها صار القرآن مستجمعاً لتلك الصفات كلها .

وإليك لفظة أخرى في سياق آخر تلك صيغة « سخر » من قول الحق سبحانه « وسخر الشمس والقمر » .

إنها لفظة موحية بالقوة والعظمة من خلال ظلالها وبنيتها إذجاءت بلفظ الماضي المضعف ، فهي كبيرة في مدلولها، قوية في بنيتها ، ذلك لأنها بجانب الحديث عن آيتين كبيرتين عظيمتين هما الشمس والقمر ، فاختير التعبير بها على غيرها مما يؤدي معنى التسخير « كأمر » أو « جعل » أو « ذلل » لأن الآية هنا ترسم مشهداً عظيما فيه منافع جليلة لعموم المخلوقات ، ومثل هذه المنافع مجتمعة تقصر في أدائها لفظة « أمر » أو « جعل » أو « ذلل » فإذا أنت تلحظ في آية أخرى ، حيث كان الحديث عن نعمة واحدة هي الإضاءة وتبديد الظلمة والعتمة أنه كفى في هذا المعنى ما هو دون التسخير مبنى ومعنى ذلك هو لفظ (جعل) من قوله تعالى : (وجعل القمر فيهن نوراً ، وجعل الشمس سراجاً)[1] .

---

(١) نوح ١٦

وإذا أنت أنعمت النظر فى لفظة « سخر » وجدت أنها سيقت للحديث عن نعم كثيرة تفيدها الشمس والقمر مسخرين من عند الله ، ففى الشمس وطاقتها الحرارية منافع للناس والحيوان والنبات ، وفى القمر زينة الكون وتبصير الناس بضبط المواقيت والحساب، وفيهما معاً دلالة لمن أراد التفكر فى ملكوت الكون تدعو إلى الإيمان بخالقه ومبدعه ، وفى الإيمان طمأنينة لنفس المؤمن فى الحياة الدنيا ، وثواب من الله فى الحياة الأخرى ، ومن من ذا الذى ليس بحاجة إلى منافع الشمس والقمر تلك المنافع التى لم يف فى التعبير عنها لفظ غير صيغة « سخر »(١) .

لقد شهد التتبع الاستقرائى لألفاظ القرآن الكريم فى سياقها ، أنه يستعمل اللفظ بدلالة معينة ، لا يمكن أن يؤديها لفظ آخر فى المعنى الذى تحشد له المعاجم وكتب التفسير عددا قل أو كثر من الألفاظ .

من ذلك : أشتات وشتى :

مادتهما واحدة ، والشت والشتات فى اللغة التفرق والاختلاف ، وقد وردت المادة خمس مرات فى القرآن الكريم ثلاث منها بصيغة شتى فى آيات

« وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى(١) »

« إن سعيكم لشتى » (٢)

« تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى » (٣)

ومعنى الاختلاف المقابل للائتلاف هو ما يعطيه سياقها .

على حين يؤذن السياق بمعنى « التفرق » المقابل « للتجمع » فى صيغة أشتات يأتى :

---

(١) النظم القرآنى فى سورة الرعد ص ٦٨

(٢) طه ٥٣ (٣) الليل ٤

(٤) الحشر ١٤

« يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم (١) » .

« ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا » (٢) .

ومن ذلك : النأى والبعد .

يأتى بهما أكثر اللغويين والمفسرين تأويلا لأحدهما بالآخر ، دون إشارة إلى فرق بينهما ، وفرق بينهما من أنكروا الترادف .

ونستقرىء مواضع الاستعمال القرآنى للنأى والبعد فلا يترادفان : النأى لا يأتى إلا بمعنى الإعراض والصد والإشاحة بصريح السياق فى آياته :

« وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه » (٣) .

« حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين . وهم ينهون عنه وينأون عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون » (٤) .

أما البعد فيأتى بمختلف صيغه فى القرآن على الحقيقة أو المجاز فى البعد المكانى أو الزمانى ، المادى منهما والمعنوى بصريح آياته :

« لو كان عرضاً قريبا وسفراً قاصداً لا تبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة (٥) » .

« حتى إذا جاءنا قال ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين (٦) »

(١) الزلزلة ٦
(٢) النور ٦١
(٣) الإسراء ٨٣ ، فصلت ٥١
(٤) الأنعام ٢٦
(٥) التوبة ٤٢
(٦) الزخرف ٣٨

« إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا »(١) .

« وأنى لهم التناوش من مكان بعيد »(٢) .

« أولئك ينادون من مكان بعيد »(٣).

« وما هي من الظالمين ببعيد »(٤) .

« إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون »(٥).

« وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد »(٦) .

« وإن أدري أقريب أم بعيد ما توعدون »(٧) .

« إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً »(٨) .

« يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً »(٩) .

« فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق »(١٠) .

« فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين »(١١) .

---

(١) الفرقان ١٢
(٢) سبأ ٥٢
(٣) فصلت ٤٤
(٤) هود ٨٣
(٥) الأنبياء ١٠١
(٦) ق ٣١
(٧) الأنبياء ١٠٩
(٨) المعارج ٦
(٩) آل عمران ٣٠
(١٠) سبأ ١٩
(١١) النمل ٢٢

وكلها فى البعد المكانى أو الزمنى .

وجاء البعد نقيضاً للقرب فى لعنة الطرد بآيات :

« ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود »(١) .

« وقيل بعداً للقوم الظالمين »(٢) .

كما جاء البعد فى المعنويات فى :

« شقاق بعيد »(٣) ، و « ضلال بعيد »(٤) .

والبعد فيها جميعا نقيض القرب ، على حين يخلص النأى للصد والاعراض نقيض الإقبال ، ومن ذلك : آنس وأبصر :

فى المعاجم : آنس الشىء أبصره ، والصوت سمعه ، واستأنس : استأذن.

فهل تسيغ العربية النقية ، حيث يقول القرآن : « آنس من جانب الطور ناراً »(٥) .

أن يقال : أبصرها ، أو نظرها ، أو شهدها ، أو ما أشبه ذلك من الألفاظ التى يظن أنها تتعاقب على معنى : آنس ؟

نستقرىء الاستعمال القرآنى ، فيعطينا حس العربية المرهف : لا تقول « آنس » فى الشىء تبصره أو تسمعه ، دون أن تجد فيه أنساً ، فإذا قال العربى الأصيل : آنست فقد رأى أو سمع ما يؤنسه .

---

(١) هود ٩٥ (٢) هود ٤٤ ، ٦٠ ، ٦٨

(٣) البقرة الآية ١٧٦ ، والحج ٥٣ ، وفصلت ٥٢

(٤) ابراهيم ٣ ، ١٨ ، والنساء ٦٠ ، ١١٦ ، ١٣٦ ، ١٦٧ ، والحج ١٢ ، والشورى ١٨ ، وسبأ ٨ ، وق ٢٧

(٥) القصص ٢٩

والقرآن قد استعمل الفعل «آنس» خمس مرات منها أربع في النار التي رآها موسى عليه السلام إذ سار بأهـــله في البرية فأنس إليها ، وهذه آياتها :

« إذ رأى ناراً فقال لأهله إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى »(١)

« إذ قال موسى لأهله إني آنست نارا سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون »(٢) .

« فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً قال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون »(٣) .

والمرة الخامسة في آية النساء : « وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم »(٤)

ليس الإيناس هنا مجرد إبصار لظواهر الرشد المادية الحسية في سن البلوغ ، ولكنه الطمأنينة المؤنسة بالابتلاء والامتحان إلى أنهم قد رشدوا حقاً .

وفي القرآن من المادة صيغة الفعل المضارع من الاستئناس في آية النور :

« يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها »(٥)

---

(١) طه ١٠   (٢) النمل ٧
(٣) القصص ٢٩   (٤) النساء ٦
(٥) النور ٢٧

والاستئناس فيها ليس مجرد استئذان ، وإنما هو حس الإيناس لأهل البيت قبل دخوله ، ولا يسوغ في ذوق العربية أن يقال استأنس الشرطي، أو جابي الضرائب أو الدائن ، وإنما هو الاستئذان ليس فيه حس إيناس .

كما لا يسوغ استعمال « آنس » في رؤية عدو أو نار حريق، أو في سماع هزيم رعد ، وزئير وحش(١) .

ولاختيار القرآن الكلمة الدقيقة المعبرة ، يفضل الكلمة المصورة المعنى أكمل تصوير ، ليشعرك به أتم شعور وأقواه، وخذ لذلك مثلا : كلمة « يسكن » في قوله تعالى : « إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره »(٢) .

وكلمة « تسوروا » في قوله تعالى : « وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب »(٣) .

ويكفي أن تقرأ قوله تعالى « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة »(٤) .

وقوله تعالى : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ، وأضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه »(٥) لترى قدرة كلمة « ختم » في تصوير امتناع دخول الحق قلوب هؤلاء الناس . وقوله تعالى : « الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات »(٦) لترى قيمة كلمتي الظلمات والنور ، في إثارة العاطفة ، وتصوير الحق والباطل(٧) .

---

(١) الإعجاز البياني للقرآن ص ٢٠٠ (٢) الشورى ٣٣
(٣) ص ٢١ (٤) البقرة الآية ٧ (٥) الجاثية ٢٣
(٦) البقرة الآية ٢٥٧ (٧) انظر من بلاغة القرآن ص ٦٤

واقرأ قوله تعالى : فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت[1] .

فإن قوله «فإذا جاء الخوف» فيه تصوير الخوف في صورة هول ورعب مجسد تمكون منه حركة ومجيء ، وهكذا يكون وقعه في النفوس المنافقة الفزعة الخاوية التي تحسب كل صيحة عليها .

وقد ذهبوا في تفسيره مذهبين : قيل هو الخوف من العدو والقتال ، أي : إذا جاء العدو لاذوا بكم ونظروا إليكم نظر الخائف الملتاع ، وكأنهم لخورهم وجبنهم قد انخلعت قلوبهم ، فهم كالمغشي عليه ضعفاً وفتوراً وقلة حيلة ، وبهذا يكون الكلام تصويراً لجبنهم وخوفهم من الحرب والعدو ، وهو الوجه المشهور ، وقيل الخوف هنا غلبة محمد عليه السلام وأصحابه ، أي إذا ظهرت غلبتكم لأعدائكم رأيتهم مضطربين خائفين متوقعين الشر من جهتكم ، لأنهم كانوا يتربصون بكم ، وينتظرون هزيمتكم واستئصالكم ، ويكاد المريب يقول خذوني ، فهم ينظرون إليك نظر الخائف منك الذي يتوقع الاستئصال من جهتك ، وبهذا يكون الكلام وصفاً لدخل نفوسهم واضطراب أهوائهم ، وكل صالح ومستقيم .

وقوله «تدور أعينهم» أصله تدور أحداقهم في أعينهم ، ولكنه لحدة هذا الدوران ، وسرعة هذا التقلب خيل أن العيون كلها تدور ، فليس الدوران دوران المحاجر والأحداق ، ولكنه دوران العيون حتى الجفون والأهداب ، وهذا لون من صنعة البيان يسميه أهل الفن إطلاق المحل على الحال ، وهو ضرب من المجاز المرسل .

هذا من حيث استعمال كلمة أعينهم في أحداقهم ، أما قوله «تدور» فإن فيه ملحظين لأهل صنعة البيان :

---

(١) الأحزاب ١٩

الأول : اختيار هذه المادة ، وكان يمكن أن يقول رأيتهم ينظرون إليك تتلفت عيونهم ، أو تتقلب محاجرهم ، ولكنه آثر على ذلك كلمة « تدور » وذلك لقوة تصوير الحركة الدائبة ، حيث تظهر في الدوران أكثر من ظهورها في التقلب أو الالتفات ، فإن الدوران كما قلنا من الكلمات المصورة لمعناها بهيئتها .

والثاني : مجيئها على صيغة المضارع ، تلك الصيغة الكاشفة التي تصف الحدث — وهو يقع — أتم وصف ، وتبينه أبلغ بيان ، وعليك أن ترجع إلى نفسك ، وأن تردد كلمة تدور ، ثم تبصر ما تجد ، سوف ترى في خيالك هذه العيون في حركتها الدائبة اللاهثة ، تدور وتدور ، وهذا الدوران مستمر لا يزول ، مادام الخوف قد جاء إلى أن يزول ، فلن تهدأ هذه الحركة إلا إذا ذهب الخوف ، وحينئذ ينتهي دور العيون الشاخصة ليبدأ دور الألسنة الحداد .

وقوله « كالذي يغشى عليه من الموت » أضفى على هذا الدوران الدائب اللاهث وصف الضعف والتخاذل والفتور ، فليس هذا الدوران والدأب من العيون أمارة الحيوية والحياة وإنما هو مظهر الموت والاستسلام ، وما أروع كلمة « يغشى » حيث غشت حركة عيونهم واضطرابهم بغشاء المسجى الذي خذلته غشاه ، وهم بفراقه نبض القوة والحياة ، وانظر إلى حسن هذا التشبيه حيث اختار نظر المغشى عليه من الموت صورة صادقة لهؤلاء الخوارين الذين يملأ قلوبهم الجمود والموت ، والذين وصفهم في أكثر من موضع بمرضى القلوب ، وإذا طال زمن مرض القلوب استشرى فيها داؤها ، وماتت كل معنى من معاني الحياة التي لا تجد لها مقرا إلا في صحاح القلوب .

وقوله في أول التصوير بعد الإعلام بمجيء الخوف « رأيتهم » الرؤية فيه بصرية ، وهي تلفت إلى النظر في هذا التصوير البديع ، وامتلاء القلب

من هذه الصورة العجيبة (ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت) وهى صورة فزع وهول تتزاحم فيها عناصر الخوف والرعب ، ففيها الحاجر الجاحظة من سرعة التقلب والوله والحيرة ، وفيها الرجل المسجى الذى يعالج الموت ، وقبل ذلك فيها الخوف المتسلط الرهيب (١) .

واقرأ قوله تعالى « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنــــة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مــكان ، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » (٢) .

يقول الشيخ محمد أبو زهرة مشيرا إلى ما فى كل كلمة مما اختصت به (٣):

الأولى : كلمة « آمنة » فالأمن معناه عدم الخوف من مغير يغير عليهم ، أو عدو يساورهم ، فتجد فى هــذه الكلمة إشارة إلى نعمة ليست لغيرهم ، واختصوا بها دون الناس أجمعين .

الثانية : كلمة « مطمئنة » فمعنى الاطمئنان يتصل بالنفس ، فهى قد منحها الله تعالى القرار والسكون والدعة من غير ضعف ، ومع هذه الدعة كان هو يقويها ويثبتها ، مع ما أعطاهم الله من سلطان أدبى على العرب ، وهم ملتقى اجتماعهم ، ومستقر شعائرهم الدينية ، ومقامهم الكريم الطيب ، فكل هذا يفهم من كلمة مطمئنة .

الثالثة : « يأتيها رزقها » فإن هذا يشير إلى سهولة الحياة ، وأنه لا يأتيهم كسائر العرب بانتجاع الكلأ ، والتنقل فى الصحراء ، لا ينالون الحياة إلا بشق الأنفس ، وبذوقهم فى طلبهم الرزق حر الحياة وقرها .

---

(١) من أسرار التعبير القرآنى — دراسة تحليلية لسورة الأحزاب ص ٧٨

(٢) النحل ١١٢

(٣) المعجزة الكبرى ص ٩٠

الرابعة : كلمة « رغداً » فالرغد هو الرزق الطيب المذاق المرىء غير الوبىء وهو الواسع الكثير ، فهم فى رزق يأتيهم سهلا طيبا ، واسعا مريئا، لا وباء فيه .

ولكنهم كفروا بهذه الأنعم كلها ، فأى صورة بيانية أروع من هذه الصورة ؟

نجد الكلمات الأربع متآخية فى معانيها ، متلاقية فى ألحانها ، منسجمة فى نغماتها . وكل كلمة منها تعطى صورة بيانية ، فآمنة فيها صورة البلد الذى لا يساوره عدو فى وسط موطن فيه يتخطف الناس ، ومطمئنة يشير إلى الاطمئنان النفسى الساكن القار كالماء الساكن الذى لا تعبث به الرياح ويأتيها رزقها طيبا من كل مكان ، تشير إلى المكانة التجارية التى يأتيها الخير من كل بلد قاص ودان .

وأن مجموع الكلمات مع ما تشعه كل واحدة من معان وصور ، يصور حال جماعة من الناس على هذه الأمور المجتمعة غير المفترقة ، وكلها فيوض من أنعم الله تعالى ، ومع ذلك تكفر هذه النعم فلا تشكر بل تجحد الحق ولا تؤمن .

وهنا تجىء الصورة الثانية من عقاب ، ومؤاخذة على ما ارتكبوا من كفر بأنعم الله ، ونجد أن كلمة « أنعم » فيها فصاحة وصورة بيانية ، إذ أنهم لم يكفروا بواحدة ، بل كفروا بها كلها فكان الجحود أشد ، والضلال أبعد ، ولكلمة « أنعم » نغمة هادئة مع سعة المعنى فى الكلمة ، إذ أنها نعم متضافرة ، وفيوض خير من الله تعالى متكاثرة .

هذه حال ما أفاض الله تعالى به عليهم ، كانت فيها صور النعم واضحة كلا وجزءا كل كلمة سيقت لذلك .

فلننتقل من الآية الكريمة إلى الصورة التى حلت محل الأولى ، ولننظر إلى الكلمات السامية كلمة كلمة ثم ننظر إلى الصورة التى تتكون من هذه الكلمات التى كانت كل كلمة منها صورة قائمة بذاتها ، وهى أيضا جزء من الصورة الكبرى التى يكونها المثل القرآنى السامى .

الكلمة الأولى : « أذاقها » فى التعبير بأذاق إشارة إلى أن الإيلام مس نفوسهم ، وبعد أن كانوا فى ترف صاروا يذوقون الضر .

يقول الزمخشرى فى معنى الإذاقة (١) : الإذاقة قد جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها فى البلايا والشدائد ، وما يمس الناس منها ، فيقولون ذاق فلان البؤس والضرر ، وأذاقه العذاب ، شبه ما يدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من طعم المر والبشع (٢) .

وترى من التعبير والتقابل ، أنهم بعد ما سكن قلوبهم من اطمئنان ، وما كان من العيش الرغد ذاقوا الجوع ، وبما منحوا من أمن ذاقوا الخوف ، وهكذا تجد التقابل .

والكلمة الثانية : لباس الجوع والخوف ، فيها صورة بيانية رائعة ، فهى تصور الجوع والخوف كأنه لباس لبسهم وأحاط بهم إحاطة الدائرة بقطرها ، لا يخرجون منه إلا إليه ، ولا يدورون إلا فى دائرته ، وإن ذلك بلا ريب يفيد الإحاطة الشاملة الكاملة التى لا يستطيعون منها فكاكا ، وهذا يفيد استمراره وتجدده آنا بعد آن .

إن هذه الصورة البيانية التى يصورها القرآن قد تضافرت الكلمات فى تكوينها ، فاشترك فيها التعبير بأذاقهم ، والتعبير باللباس ، وكون اللباس

---

(١) الكشاف حـ ٢ ص ٤٣١

(٢) كريه الطعم

جوعا وخوفا ، ولباس الجوع والخوف أشد إيلاما من لباس الشوك ، لأن الشوك يؤذى الجلد حساً ، ولباس الجوع والخـوف يؤذى الجسم ويؤذى النفس ، وإذا قوبلت هـذه الصورة عند الكفر بالصورة الأولى من أمن واطمئنان ورخاء فى العيش وطيبه والساعه ، وجدت الفارق بين صورة النعمة التى كفروا بها والشقاء الدائم بعد الكفر .

ومن ذلك يتبين مقام كل كلمة فى تكوين الصورة العامة فوق النغمة الهادئة ، والتصوير الحكيم .

واقرأ قوله تعالى : « والنخل باسقات لها طلع نضيد »(١)

هل تستطيع أن تجد لفظة تحل محل « باسقات » التى توحى بالرشاقة والأناقة والارتفاع والسموق ؟ والحروف التى تتكون منها تلك الكلمة إيقاع ممتد متسام يتلاءم مع طول النخلة وتساميها ، فهل تقوم كلمة « طويلات » مقام تلك الكلمة ؟

ولنتجاوز هـذه الكلمة إلى كلمة أخرى وهى « طلع » والمقصود به الثمر فى أول نشأته ، فلماذا آثر القرآن « طلع » ؟ ذلك للإيحاء بأنه طالع الآن فهو قريب العهد .

وكلمة « نضيد » لها من الايحاء الراقى مايفيد التنسيق بين أجزاء ذلك الطلع ولن تجد فى الوجودكله أبهج من منظر طلع النخل المنسق تنسيقا دقيقا بديعا ، مما يثير شعور الإيمان بعظمة الإله المبدع فى أعماق النفس الإنسانية .

ثم انظر إلى التعانق البديع بين الكلمات « النخل — طلع — نضيد »

---

(١) ق ١٠

وكلها تتناسق لتعطى الدلالة القوية، وتحدث الإيحاء المطلوب.. وهو الدلالة على قدرة الله، وعظيم صنعه وإبداعه، فتبارك الله أحسن الخالقين، وكأن بين كل كلمة وأخرى وشائج قربى من الحس والحركة والحياة، وكأنما الجمل القرآنية في ترابطها موجات تتعانق في محيط هادىء(١).

وتأمل موقع قوله تعالى «وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه»(٢).

هل تقع في الحسن موقع قوله «ليأخذوه» كلمة؟ وهل تقوم مقامه في الجزالة لفظة؟ وهل يسد مسده في الأصالة نكتة؟ لو وضع موضع ذلك «ليقتلوه» أو «ليرجموه» أو «لينفوه» أو «ليطردوه» أو «ليهلكوه» أو «ليذلوه» ونحو هذا ما كان بديعا، ولا بارعا ولا عجيبا ولا بالغا.

فانقد موضع هذه الكلمة، وتعلم بها ما تذهب إليه من تخير الكلام، وانتقاء الألفاظ والاهتداء للمعاني(٣).

ومما يمتاز به أسلوب القرآن — أيضا — أن اللفظة الواحدة تأتى في القرآن الكريم جزلة متينة، وفي الشعر ركيكة ضعيفة.

يقول ابن الأثير: إنك ترى اللفظة تروقك في كلام، ثم تراها في كلام آخر فتكرهها، فهذا ينكره من لم ينق طعم الفصاحة، ولا عرف أسرار الألفاظ في تركيبها وانفرادها.

وسأضرب لك مثالا يشهد بصحة ما ذكرته، وهو أنه قد جاءت لفظة واحدة في آية من القرآن، وبيت من الشعر، فجاءت في القرآن جزلة متينة، وفي الشعر ركيكة ضعيفة. فأثر التركيب فيها هذين الوصفين الضدين، أما الآية فهي قوله تعالى: «فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث،

---

(١) والقيه المنهج القرآني ص ٤٣٦ (٢) غافر ٥

(٣) إعجاز القرآن للباقلاني ص ١٩٧

إن ذلكم كان يؤذى النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق »(١) .

وأما بيت الشعر فهو قول أبي الطيب المتنبي :

تلذ له المروءة وهى تؤذى   ومن يعشق يلذ له الغـــرام

وهذا البيت من أبيات المعانى الشريفة ، إلا أن لفظة « تؤذى » قد جاءت فيه ، وفى الآية من القرآن فحطت من قدر البيت لضعف تركيبها وحسن موقعها فى تركيب الآية .

فأنصف أيها المتأمل لما ذكرناه ، وأعرضه على طبعك السليم حتى تعلم صحته ، وهذا موضع غامض يحتاج إلى فضل فكرة ، وإمعان نظر ... وهذه اللفظة التى هى « تؤذى » إذا جاءت فى الكلام ، فينبغى أن تكون مندرجة مع ما يأتى بعدها متعلقة به ، كقوله تعالى : « إن ذلكم كان يؤذى النبى » وقد جاءت فى قول المتنبى منقطعة ، ألا ترى أنه قال « تلذ له المروءة وهى تؤذى » ثم قال : « ومن يعشق يلذ له الغرام » فجاء بكلام مستأنف .

وكذلك ورد فى القرآن الكريم « إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة »(٢) .

فلفظة « لى » أيضاً مثل لفظة « يؤذى » وقد جاءت فى الآية مندرجة متعلقة بما بعدها ، وإذا جاءت منقطعة لا تجىء لائقـــة كقول أبى الطيب أيضـاً :

تمـى الأمانى صرعى دون مبلغه   فما يقول لشىء ليت ذلك لى

وههنا من هذا النوع لفظة أخرى قد وردت فى آية من القرآن الكريم ،

---

(١) الأحزاب ٥٣   (٢) ص ٢٣

وفى بيت من شعر الفرزدق،فجاءت فى القرآن حسنة ، وفى البيت الشعر غير حسنة ، وتلك اللفظة هى لفظة « القمـــل » أما الآية فقوله تعالى : « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات »(١) .

وأما البيت الشعر فقول الفرزدق :

من عزه احتجرت كليب عنده
زربا كأنهـــم لديه القمـــل

وإنما حسنت هذه اللفظة فى الآية دون هذا البيت من الشعر لأنها جاءت فى الآية مندرجة فى ضمن كلام،ولم ينقطع الكلام عندها، وجاءت فى الشعر قافية ، أى آخراً انقطع الكلام عندها.

وإذا نظرنا إلى حكمة أسرار الفصاحة فى القرآن الكريم خضنا منه فى بحر عميق لاقرار له .

فمن ذلك هذه الآية المشار إليها ، فإنها قد تضمنت خمسة ألفاظ هى :

الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، وأحسن هذه الألفاظ الخمسة هى الطوفان والجراد والدم،فلما وردت هذه الألفاظ الخمسة بجملتها، قدم منها لفظة الطوفان والجراد ، وأخرت لفظة الدم آخراً ، وجعلت لفظة القمل والضفادع فى الوسط ، ليطرق السمع أولا الحسن من الألفاظ الخمسة ، وينتهى إليها آخراً ، ثم إن لفظة الدم أحسن من لفظتى الطوفان والجراد ، وأخف فى الاستعمال ومن أجل ذلك جىء بها آخراً ، ومراعاة مثل هذه الأسرار والدقائق فى استعمال الألفاظ ليس من القدرة البشرية .

---

(١) الأعراف ١٣٣

ومن ذلك — أيضاً — كلمة « مقاعد » فقد جاءت فى قول الشريف الرضى :

أعزز على بأن أراك وقد خلا
عن جانبيك مقاعد العواد(١)

قلقة ، على حين جاءت فى القرآن الكريم حسنة .

يقول ابن الأثير : ذكر ابن سنان الخفاجى هذا البيت فى كتابه(٢) ، فقال : إن إيراد هذه اللفظة فى هذا الموضع صحيح إلا أنه موافق لما يكره ذكره فى مثل هذا الشعر ، لا سيما وقد أضافه إلى من يحتمل إضافته إليه ، وهم العواد ، ولو انفرد لكان الأمر سهلا .

فأما الإضافة إلى من ذكره ففيها قبح لا خفاء فيه ، هذا حكاية كلامه ، وهو مرضى واقع فى موقعه ، ولنذكر نحن ما عندنا فى ذلك فنقول :

قد جاءت هذه اللفظة المعيبة فى الشعر فى القرآن الكريم فجاءت حسنة مرضية وهى قوله تعالى : « وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال »(٣) .

---

(١) من قصيدة له يرثى فيها أبا إسحاق إبراهيم بن هلال الصابى الكاتب وأولها :

أعلمت من حملوا على الأعواد
أرأيت كيف خبا ضياء النادى

(٢) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى ص ٧٩

(٣) آل عمران ١٢١

وكذلك قوله تعالى : « وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً »(١) .

ألا ترى أنها في هاتين الآيتين غير مضافة إلى من تقبح إضافته إليه ، كما جاءت في الشعر . ولو قال الشاعر بدلا من مقاعد العواد ، مقاعد الزيارة أو ماجرى مجراه ، لذهب ذلك القبح ، وزالت تلك الهجنة ، ولهذا جاءت هذه اللفظة في الآيتين على ماتراه من الحسن ، وجاءت على ماتراه من القبح في قول الشريف الرضى(٢) .

هذا ، وفي القرآن لفظة غريبة ، هي من أغرب مافيه ، وما حسنت في كلام قط إلا في موقعها منه ، وهي كلمة « ضيزى » من قوله تعالى : «تلك إذاً قسمة ضيزى »(٣) .

ومع ذلك فإن حسنها في نظم الكلام من أغرب الحسن وأعجبه، ولو أردت اللغة عليها ماصلح لهذا الموضع غيرها، فإن السورة التي هي منها وهي سورة النجم مفصلة كلها على الياء ، فجاءت الكلمة فاصلة من الفواصل . ثم هي في معرض الإنكار على العرب إذ وردت في ذكر الأصنام ، وزعمهم في قسمة الأولاد، فإنهم جعلوا الملائكة والأصنام بنات الله مع وأدهم البنات، فقال تعالى : « ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذاً قسمة ضيزى » .

فكانت غرابة اللفظة أشد الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة التي أنكرها. وكانت الجملة كلها كأنها تصور في هيئة النطق بها الإنكار في الأولى،

---

(١) الجن ٩

(٢) المثل السائر ص ١٤٥ — ١٤٨ ، ١٨٦

(٣) النجم ٢٢

والتهكم فى الأخرى ، وكان هذا التصوير أبلغ ما فى البلاغة . وخاصة فى اللفظة الغريبة التى تمكنت فى موضعها من الفصل ، ووصفت حالة المتهكم فى إنكاره من اليد والرأس بهذين المدين فيها إلى الأسفل والأعلى، وجمعت إلى كل ذلك غرابة الإنكار بغرابتها اللفظية .

والعرب يعرفون هذا الضرب من الكلام ، وله نظائر فى لغتهم ، وكم من لفظة غريبة عندهم لاتحسن إلا فى موضعها ، ولا يكون حسنها على غرابتها إلا أنها تؤكد المعنى الذى سيقت له بلفظها وهيئة منطقها ، فكأن فى تأليف حروفها معنى حسياً ، وفى تألف أصواتها معنى مثله فى النفس .

وإن تعجب فعجب نظم هذه الكلمة الغريبة ، وائتلافه على ما قبلها ، إذ هى مقطعان :

أحدهما : مد ثقيل ، والآخر مد خفيف ، وقد جاءت عقب غنتين فى « إذاً » و « قسمة » .

وإحداهما : خفيفة حادة والأخرى ثقيلة متفشية ، فكأنها بذلك ليست إلا مجاوبة صوتية لتقطيع موسيقى ، وهذا معنى رابع الثلاثة التى عددناها آنفا ، أما خامس هذه المعانى ، فهو أن الكلمة التى جمعت المعانى الأربعة على غرابتها ، إنما هى أربعة أحرف أيضاً(١) .

ولما كانت زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ، فإننا نجد القرآن الكريم المثل الأعلى لذلك .

---

(١) انظر : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعى ص ٢٦١ ، والمثل السائر ج ١ ص ١٥٦

يقول ابن الأثير : إن اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان ، ثم نقل إلى وزن آخر أكثر منه ، فلابد من أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولا ، لأن الألفاظ أدلة على المعانى ، وأمثلة للإبانة عنها ، فإذا زيد فى الألفاظ ، أوجبت القسمة زيادة المعانى ، وهذا لانزاع فيه لبيانه ، وهذا النوع لا يستعمل إلا فى مقام المبالغة .

فمن ذلك قولهم : خشن واخشوشن ، فمعنى خشن دون معنى اخشوشن ، لما فيه من تكرير العين وزيادة الواو نحو : فعل وافعوعل . وكذلك قولهم : أعشب المكان ، فإذا رأوا كثرة العشب قالوا : اعشوشب .

ومما ينتظم بهذا السلك : قدر واقتدر ، فمعنى اقتدر أقوى من معنى قدر ، قال الله تعالى : « فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر »[1] .

فمقتدر ههنا أبلغ من قادر ، وإنما عدل إليه للدلالة على تفخيم الأمر ، وشدة الأخذ الذى لا يصدر إلا عن قوة الغضب ، أو للدلالة على بسطة القدرة ، فإن المقتدر أبلغ فى البسطة من القادر ، وذلك أن مقتدراً اسم فاعل من اقتدر ، وقادر اسم فاعل من قدر ، ولا شك أن افتعل أبلغ من فعل .

وعلى هذا ورد قول أبى نواس :

فعفوت عنى عفو مقتدر
حلت له نقم فألغاها

أى عفوت عنى عفو قادر متمكن القدرة ، لا يرده شىء عن إمضاء قدرته ، وأمثال هذا كثيرة .

---

(١) القمر ٤٢

وكذلك ورد قوله تعالى في سورة نوح عليه السلام: «فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً »(١) .

فإن غفاراً أبلغ في المغفرة من غافر ، لأن فعالا يدل على كثرة صدور الفعل ، وفاعلا لا يدل على الكثرة .

وعليه ورد قوله تعالى : « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين »(٢) فالتواب هو الذى تتكرر منه التوبة مرة على مرة ، وهو فعال ، وذلك أبلغ من التائب الذى هو فاعل ، فالتائب اسم فاعل من تاب يتوب فهو تائب ، أى صدرت منه التوبة مرة واحدة ، فإذا قيل : تواب ، كان صدور التوبة منه مراراً كثيرة .

وهذا ، وما يجرى مجراه ، إنما يعمد إليه لضرب من التأكيد ، ولا يوجد ذلك إلا فيما فيه معنى الفعلية ، كاسم الفاعل والمفعول ، وكالفعل نفسه نحو قوله تعالى : « فكبكبوا فيها هم والغاوون »(٣) .

فإن معنى « كبكبوا » من الكب وهو القلب إلا أنه مكرر المعنى ، وإنما استعمل في الآية دلالة على شدة العقاب ، لأنه موضع يقتضى ذلك(٤) .

---

(١) نوح ١٠

(٢) البقرة الآية ٢٢٢

(٣) الشعراء ٩٤

(٤) المثل السائر — تحقيق الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد ١٩٣٩ ج ٢ ص ٦٠

ولما كانت الألفاظ تنقسم فى الاستعمال إلى جزلة ورقيقة ، ولكل منهما موضع يحسن استعماله فيه ، فإن كل لفظ فى كتاب الله قد وقع موقعه الأخص الأشكل .

يقول ابن الأثير : انظر إلى قوارع القرآن عند ذكر الحساب والعذاب والميزان والصراط وعند ذكر الموت ومفارقة الدنيا ، وماجرى هذا المجرى فإنك لا تجد شيئا من ذلك وحشى الألفاظ ، ولا متوعراً ، ثم انظر إلى ذكر الرحمة والرأفة والمغفرة ، والملاطفات فى خطاب الأنبياء ، وخطاب المنيبين والتائبين من العباد ، وما جرى هذا المجرى ، فإنك لاترى شيئا من ذلك ضعيف الألفاظ ولا سفسفا .

فثال الأول — وهو الجزل من الألفاظ قوله تعالى : ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون . وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب ، وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون . ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون . وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين . قيل ادخلوا أبوب جهنم خالدين فيها ، فبئس مثوى المتكبرين . وسيق الذين اتقــوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ، وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين »(١)

---

(١) الزمر ٦٨ — ٧٤

فتأمل هذه الآيات المتضمنة ذكر الحشر على تفاصيل أحواله ، وذكر النار والجنة .

وانظر هل فيها لفظة إلا وهي سهلة مستعذبة على ما بها من الجزالة ؟

وكذلك ورد قوله تعالى : «ولقد جئتمونا فرادى ، كما خلقناكم أول مرة، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون »(١) .

وأما مثال الثانى : — وهو الرقيق الألفاظ — فقوله تعالى فى مخاطبة النبى ﷺ : « والضحى . والليل إذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى »(٢) ، إلى آخر السورة ، وكذلك قوله تعالى فى ترغيب المسألة« وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان »(٣) .

وهكذا ترى سبيل القرآن الكريم فى كلا هذين الحالين من الجزالة والرقة(٤) .

وهكذا ، نجد ألفاظ القرآن الكريم، مما يسهل على اللسان ويعذب على الآذان ، تأتى معبرة موحية ، مصورة المعنى خير تصوير ومؤدية الغرض خير أداء ، لها مقصد خاص ، لا يصلح مرادفها لأن يحل محلها ، ولم يزده مرور الزمن إلا حفظاً لإشراقها ، وسياجا لجلالها وبهائها .

---

(١) الأنعام ٩٤
(٢) الضحى ١ ، ٢ ، ٣
(٣) البقرة الآية ١٨٦
(٤) المثل السائر جـ ١ ص ١٦٩

وما أحسن قول الرافعى :

أما ألفاظ هذا الكتاب الكريم ، فهى كيفما أدرتها ، وكيفما تأملتها ، وأين اعترضتها من مصادرها أو مواردها ، ومن أى جهة وافقتها ، فإنك لا تصيب لها فى نفسك مادون اللذة الحاضرة ، والحلاوة البادية ، والانسجام العذب ، وتراها تتساير إلى غاية واحدة ، وتنسج فى معرض واحد ، ولا يمنعها اختلاف حروفها ، وتباين معانيها ، وتعدد مواقعها من أن تكون جوهراً واحداً فى الطبع والصقل ، وفى الماء والرونق(١) .

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٢٧٣

الجملة القرآنية وجمال صياغتها

وإذا كانت الألفاظ وحدها فى غاية السمو كما بينا ، فإنها زادت جمالا وجلالا بنظمها فى الجملة القرآنية التى اقتضتها دون سواها .

يقول الرافعى : إن طريقة نظم القرآن تجرى على استواء واحد فى تركيب الحروف باعتبار من أصواتها ومخارجها ، وفى التمكين للمعنى بحس الكلمة وصفتها ، ثم الافتنان فيه بوضعها من الكلام ، وباستقصاء أجزاء البيـــان وترتيب طبقاته على حسب مواقع الكلمات لا يتفاوت ذلك ولا يختل(١) .

اقرأ قوله تعالى : « وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين »(٢) .

فإنك ترى إتيان هذه الجمل معطوفا بعضها على بعض بواو النسق على الترتيب الذى تقتضيه البلاغة ، لأنه سبحانه بدأ بالأمر إذ كان المراد إطلاق أهل السفينة من سجنها ، ولا يحصل ذلك إلا بانحسار الماء عن الأرض ، فلذلك بدأ بالأرض فأمرها بالابتلاع ، وعلم عز وجل أن الأرض إذا ابتلعت ما عليها من الماء ، ولم تنقطع مادة السماء تأذى بذلك أهل السفينة عند خروجهم منها ، وربما كان ما ينزل من السماء مخلفا لما تبتلعه الأرض من الماء فلا يحصل الانحسار، فأمر سبحانه السماء بالإقلاع ، ثم أخبر بغيض الماء عندما ذهب ماء الأرض ، وانقطعت مادة السماء . ومقتضى الترتيب أن تأتى هذه الأخبار ثالث الجملتين المتقدمتين ، ثم قال سبحانه : « وقضى الأمر » أى هلك من جف القلم بهلاكه ، ونجا من سبق القلم بنجاته . وهذا

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٢٧٥

(٢) هود ٤٤

كنه الآية ، وحقيقة المعجزة ، ولابد أن تكون معلومة لأهل السفينة ، ولا يمكن علمهم بها إلا بعد خروجهم منها ، وخروجهم موقوف على ما تقدم ، فلذلك اقتضت البلاغة مجيء هذه الجملة رابعة الجمل ، وكذلك استقرار السفينة على الجودى ، أى استقرارها على المكان الذى استقرت عليه استقراراً لا حركة معه لتبقى آثارها آية لمن يأتى بعد أهلها .

وذلك يقتضى أن يكون بعد كل ما ذكرناه . وعدل عن لفظة « استقرت » إلى لفظة « استوت » لما يحتمله الاستقرار من الزيغ والميل ، ويدل عليه الاستواء من عدم ذلك ، وفى هذا طمأنينة أهل السفينة وأمنهم من المخافة ، إذ لو كان استقرارها استقراراً لا تؤمن معه الحركة لكانت حالهم فى مكابدة الحركة ، واضطراب القلوب لأجلها واحدة فى حال سيرها ووقوفها ، ولم يحصل لهم الانتقال من أذى الحركة وتعبهم إلى دعة السكون ، وقوله سبحانه « وقيل بعداً للقوم الظالمين » وهذا دعاء أوجبه الاحتراس عن يظن أن الغرق لعمومه الأرض ربما هلك به من لا يستحق الهلاك ، فدعا سبحانه على الهالكين . ووصفهم بالظلم ليعلم أن الهلاك إنما شمل من يستحق العذاب احتراسا من هذا الاحتمال ، وذلك يقتضى أن يكون مجيء هذه الجملة بعد جميع ما تقدم ، فانظر إلى حسن هذا النسق ، وصحة هذا الترتيب فى الجمل المعطوف بعضها على بعض لتعلم قدر هذا النظم(١) .

تأمل النظم الكريم ، وما فيه من روعة وبهاء ، لقد أوثر فى نداء الأرض « يا » دون الهمزة ، لما يدعو اجتماعها مع همزة « أرض » إلى ثقل على اللسان فى النطق بهما وفضلت كذلك على « أيا » لما فى هذه من زيادة تنبيه ليست الأرض وهى رهن أمر الله فى حاجة إليه ، وأوثر تنكير الأرض لما فى ذلك من تصغير أمرها ، وجاءت كلمة « ابلعى » هنا مصورة لما يراد

---

(١) بديع القرآن ص ١٦٤

أن تصنعه الأرض بمائها ، وهو أن تبتلعه بسرعة ، وفي إضافة الماء إليها ما يوحي بأنها جديرة بأن تمتص ماء هو ماؤها ، فكأنها لم تكلف شططا من الأمر ، وقل مثل ذلك في قوله « ويا سماء أقلعي » ، ولاحظ هذا التناسق الموسيقي بين ابلعي وأقلعي . وبنى « غيض » للمجهول مصوراً بذلك إحساس من شاهدوا هذا المنظر الطبيعي ، فهم قد رأوا الماء يغيض والأمر يتم ، وبنى الفعل « قيل » للمجهول إشارة إلى أن هذا القول قد صدر ممن لا يعد كثرة ، حتى لكأن أرجاء الأرض تردد هذا الدعاء ، وجاءت كلمة « بعداً » دون « هلاكا » مثلا ، إشارة إلى أن هلاك هؤلاء القوم الظالمين ، إنما قصد به إبعادهم عن الفساد في الأرض ، وأوثر المجيء بالموصوف هنا ، لأنه لا يراد الدعاء على الظالمين لاتصافهم بالظلم وإنما يراد الدعاء على هؤلاء القوم بالبعد ، لاتصافهم بالظلم ، فالمقام هنا مقام حديث عن قوم ظلموا أنفسهم فاستحقوا لذلك أن يتخلص منهم ، كما يحس في كلمة « بعداً » الدلالة على الراحة النفسية التي شعر بها من في الكون بعد أن تخلصوا من هؤلاء القوم الظالمين .

أولا ترى الآية قد صورت ما حدث بعد الطوفان أدق تصوير ، في عبارة موجزة ، فها هي ذي الأرض تبتلع ماءها ، وها هي ذي السحب في السماء تنقشع مقلعة ، وها هو ذا الماء قد غاض وعادت الطبيعة كما كانت ، فاستقرت سفينة نوح ومن معه على الجودي ، وتنفس الكون الصعداء ، فقد طهر من القوم الظالمين(١) .

وقد ذكر الإمام القرطبي في تفسيره — عقب بيان هذه الآية الكريمة: لو فتش كلام العرب والعجم ما وجد فيه مثل هذه الآية على حسن نظمها ، وبلاغة وصفها ، واشتمال المعاني فيها(٢) .

---

(١) من بلاغة القرآن ص ٥٥

(٢) تفسير القرطبي ط دار الشعب ص ٣٣٦٨

كما روى أن ابن المقفع الكاتب البليغ المشهور حاول أن يعارض القرآن ذات مرة ، فسمع صبيا يقرأ قوله تعالى : « وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين » فكسر الأقلام ، ومزق الصحف التى كان قد بدأ بها فى المعارضة ، وقال هذا والله مما لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله(١) .

يقول ابن القيم إمام الجوزية : إن ابن المقفع عارض أى القرآن ، فلما بلغ إلى هذه الآية ، أمسك عن المعارضة ، وقال هذه الفصاحة التى لا تبارى ، والبلاغة التى لا يسابق المتكلم بها ولا يجارى ، والقول الفصل الذى لا يختلف فيه ولا يتمارى(٢) .

واقرأ قوله تعالى : « فالق الإصباح ، وجعل الليل سكنا ، والشمس والقمر حسباناً ، ذلك تقدير العزيز العليم »(٣) .

يقول الباقلانى : انظر إلى هذه الكلمات الأربع التى ألف بينها ، واحتج بها على ظهور قدرته ، ونفاذ أمره ، أليس كل كلمة منها فى نفسها غرة ، وبمنفردها درة ؟ وهو مع ذلك يبين أنه يصدر عن علو الأمر ، ونفاذ القهر ، ويتجلى فى بهجة القدرة ، ويتحلى بخالص العزة ، ويجمع السلاسة إلى الرصانة ، والسلامة إلى المتانة ، والرونق الصافى والبهاء الضافى ؟

ولست أقول إنه شمل الإطباق المليح والإيجاز اللطيف ، والتعديل والتمثيل ، والتقريب والتشكيل — وإن كان قد جمع ذلك وأكثر منه — لأن العجيب ما بينا من انفراد كل كلمة بنفسها حتى تصلح أن تكون عين

---

(١) التبيان فى علوم القرآن ص ١١٥
(٢) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن ص ١٩٢
(٣) الأنعام ٩٦

رسالة أو خطبة ، أو وجه قصيدة أو فقرة ، فإذا ألفت ازدادت به حسناً وإحساناً ، وزادتك إذا تأملت معرفة وإيماناً .

واقرأ قوله تعالى «إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ، ويستحيي نساءهم ، إنه كان من المفسدين »(١) .

هذه تشتمل على ست كلمات سناؤها وضياؤها على ما ترى ، وسلاستها وماؤها على ما تشاهد ، ورونقها على ما تعاين ، وفصاحتها على ما تعرف .

وهى تشتمل على جملة وتفصيل ، وجامعة وتفسير ، ذكر العلو فى الأرض باستضعاف الخلق بذبح الولدان وسبى النساء ، وإذا تحكم فى هذين الأمرين فما ظنك بما دونهما ؟ لأن النفوس لا تطمئن على هذا الظلم ، والقلوب لا تقر على هذا الجور .

ثم ذكر الفاصلة التى أوغلت فى التأكيد ، وكفت فى التظليم ، وردت آخر الكلام على أوله ، وعطفت عجزه على صدره .

واقرأ قوله تعالى : «وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون »(٢) .

هل يحسن أحد أن يأتى بمثل هذا الوعيد ؟ وأن ينظم مثل هذا النظم ، وأن يجد مثل هذه النظائر السابقة ؟ ويصادف مثل هذه الكلمات المتقدمة ؟

واقرأ قوله تعالى : حكاية عن كيفية دعاء الملائكة : « ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما »(٣) .

هل تعرف شرف هذه الكلمة لفظا ومعنى ، ولطيف هذه الحكاية ؟ وتلاؤم هذا الكلام ، وتشا كل هذا النظام ؟ فكيف يهتدى إلى وضع هذه المعانى بشرى ، وإلى تركيب ما يلائمها من الألفاظ إنسى ؟

---

(١) القصص ٤ (٢) الشعراء ٢٢٧
(٣) غافر ٧

واقرأ قوله تعالى: «فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون. رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق. يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار»(١).

قف على هذه الدلالة، وفكر فيها، وراجع نفسك فى مراعاة معانى هذه الصفات العالية. والكلمات السامية، والحكم البالغة والمعانى الشريفة — تعلم ورودها عن الالهية، ودلالتها على الربوبية. وتتحقق أن الخطب المنقولة عنهم، والأخبار المأثورة فى كلماتهم الفصيحة من الكلام الذى تعلق به الهمم البشرية، وما تحوم عليه الأفكار الآدمية وتعرف مباينتها لهذا الضرب من القول.

أى خاطر يتشوف إلى أن يقول: «يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده، لينذر يوم التلاق، يوم هم بارزون». وأى لفظ يدرك هذا المضمار؟ وأى حكيم يهتدى إلى ما لهذا من الغور؟ وأى فصيح يهتدى إلى هذا النظم؟

ثم استقرىء الآية إلى آخرها، واعتبر كلماتها، وراجع بعدها قوله: «اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم، إن الله سريع الحساب»(٢)

من يقدر على تأليف هذه الكلمات الثلاث على قربها، وعلى خفتها فى النظم، وموقعها من القلب؟

وتأمل قوله تعالى: «وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين. ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع. يعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور، والله يقضى بالحق، والذين يدعون من دونه لا يقضون بشىء إن الله هو السميع البصير»(٣).

---

(١) غافر ١٤ — ١٦ (٢) غافر ١٧
(٣) غافر ١٨ — ٢٠

كل كلمة من ذلك على ما وصفتها : من أنه إذا رآها الإنسان فى رسالة كانت عينها ، أو فى خطبة كانت وجهها ، أو قصيدة كانت غرة غرتها ، وبيت قصيدتها ، كالياقوتة التى تكون فريدة العقد ، وعين القلادة ، ودرة الشذر ، إذا وقع بين كلام وشحه ، وإذا ضمن فى نظام زينه ، وإذا اعترض فى خطاب تميز عنه ، وبان بحسنه منه(١).

إن الجملة القرآنية بناء قد أحكمت لبناته ، ونسقت أدق تنسيق لا تحس فيها بكلمة تضيق بمكانها ، أو تنبو عن موضعها ، أو لا تعيش مع أخواتها ، حتى صار من العسير ، بل من المستحيل أن تتغير فى الجملة كلمة بكلمة ، أو أن تستغنى فيها عن لفظ ، أو أن تزيد فيها شيئاً ، وصار قصارى أمرك ، إذا أردت معارضة جملة فى القرآن ، أن ترجع بعد طول المطاف إليها ، كأنما لم يخلق الله لأداء تلك المعانى غير هذه الألفاظ ، وكأنما ضاقت اللغة فلم تجد فيها ، وهى بحر خضم - ما تؤدى به تلك المعانى غير ما اختاره القرآن لهذا الأداء(٢) .

يقول الخطابى : وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ حامل ، ومعنى به قائم ، ورباط لهما ناظم ، وإذا تأملت القرآن وجدت هذه منه فى غاية الشرف والفضيلة ، حتى لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ، ولا أعذب من ألفاظه ، ولا ترى نظما أحسن تأليفا وأشد تلاؤما وتشاكلا من نظمه ، وأما المعانى فلا خفاء على ذى عقل أنها هى التى تشهد لها العقول بالتقدم فى أبوابها ، والترقى إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها .

وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق فى أنواع الكلام ، فأما أن

---

(١) انظر إعجاز القرآن للباقلانى ط دار المعارف تحقيق السيد صقر ص ١٨٨ — ٢٠٠

(٢) من بلاغة القرآن ص ١٠٥

توجد مجموعة فى نوع واحد منه فلم توجد إلا فى كلام العليم القدير الذى أحاط بكل شيء علما، وأحصى كل شيء عددا ، فتفهم الآن واعلم أن القرآن إنما صار معجزا ، لأنه جاء بأفصح الألفاظ فى أحسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعانى(١) .

اقرأ قوله تعالى : « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا »(٢) ولننظر فى الألفاظ نجد التآلف بينها فى النطق والنغم ، أفلا نجد ائتلافا بين كلمة أوحينا وكلمة روحا وكلمة من أمرنا ، لا أنبه إلى ما فيه من تآلف فى النطق ، وتآخى فى المخارج والنغم فذلك بين لا يحتاج إلى بيان ، وهو يتصل بالذوق والجرس فى السمع فهو يدرك بالحس ، ولا ينبه إليه بالمعنى .

ولكن نريد أن ننبه إلى التآخى فى المعنى لكل كلمة سبقت ، وما تتسع له كل واحدة من معان تتلاقى مع أخواتها ، وتأتلف ، فتعطى صورة بيانية رائعة .

فكلمة « كذلك » تربط هذه الآيات بما فيها ، فهى تدل على المؤاخاة بينهما .

وكلمة « أوحينا » تدل على أن خطاب الله تعالى لرسله لا يكون جهرا يعلمه كل واحد ويسمعه كل إنسان ، فهو خطاب لرسول والرسالة ، بمجرى الأمور تكون بين المرسل و بين من يرسله ، والتعبير بأوحينا إبطال لقول من يقولون : أرنا الله جهرة ، أو قول من يقولون عن جهل بالله ورسالاته « لولا أنزل عليه ملك » أى نراه ونحسه ، ولذا رد الله تعالى قولهم بقوله : « وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون . ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون(٣) » .

---

(١) البيان فى إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل ص ٢٧

(٢) الشورى ٥٢

(٣) الأنعام ٨ ، ٩

وكلمة « أوحينا » مع حلاوة لفظها فيها إشارة إلى هذه المعانى، ولم يبين نوع الوحى إذ هو على ضروب مختلفة متعددة بالنسبة لخطاب الله تعالى لأنبيائه عامة ، وبالنسبة لمحمد خاتم الأنبياء خاصة .

ونجد فى إضافة الإيحاء إلى الله تعالى بيان عظمة الوحى ، وكون الإيحاء إلى النبى مخاطبا له جل شأنه إعلاء لمنزلته ، وبذلك تتآخى فى رفع شأن الرسالة والنبى صلى الله عليه وسلم .

وقوله تعالى: «روحا من أمرنا » والروح هنا ـ كما قال أكثر المفسرين ـ جبريل ، ونرى أنها تشمل جبريل عليه السلام . فقد سماه الله تعالى روح القدس(١) ويكون معنى الإيحاء الإرسال ، ويشمل القرآن ، ويشمل الشريعة نفسها ، وتسميتها بالروح لما فيها من معنى البقاء والحياة إلى يوم القيامة ، وإضافتها إلى من أمر الله تعالى لتشريفها ، وتشريف من جاءت إليه ، وبعث باسمها .

وهكذا نجد مع ائتلاف الألفاظ فى النسق والنغم وجرس الكلام تآخيا فى المعانى ، فإنها كلها تدل على شرفها بعظم مصدرها وهو الله تعالى . فأى كلام بليغ يصل إلى كل هذا فى التآلف بين المعانى والألفاظ(٢) ؟

واقرأ قوله تعالى : حكاية عن يعقوب عليه السلام : « إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله مالا تعلمون »(٣) فإنك ترى سهولة هذا النظم وعذوبة هذه الألفاظ ، وما فى هذا الكلام من الانسجام مع ماوقع فيه من التعطف فى قوله تعالى « إلى الله » « وأعلم من الله » فإنه إنما عدل عن قوله « وأعلم منه » وهو أوجز من الأول ليأتى فى الكلام تعطف يزيده حسنا ، وفيه زيادة خضوع وترقق مع تمكين فاصلة الآية(٤).

---

(١) قال تعالى « قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين » النحل ١٠٢

(٢) المعجزة الكبرى ص ١٠٢ (٣) يوسف ٨٦ (٤) بديع القرآن ص ١٦٦

واقرأ قوله تعالى : « قالوا تالله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضا »(١) .

فإنه سبحانه لما أتى بأغرب ألفاظ القسم بالنسبة إلى أخواتها ، فإن التاء أقل استعمالا وأبعد من أفهام العامة ، والباء والواو أعرف عند الكافة وهى أكثر دورانا على الألسنة واستعمالا فى الكلام أتى سبحانه بأغرب صيغ الأفعال التى ترفع الأسماء وتنصب الأخبار بالنسبة إلى أخواتها ، فإن « كان » وماقاربها أعرف عند الكافة من « تفتأ » وهم « لكان » وماقاربها أكثر استعمالا منها ، وكذلك لفظ « حرضاً » أغرب من جميع اخواتها من ألفاظ الهلاك ، فاقتضى حسن الوضع فى النظم أن تجاور كل لفظة بلفظة من جنسها فى الغرابة أو الاستعمال توخياً لحسن الجوار ، ورغبة فى ائتلاف المعانى بالألفاظ ولتتعادل الألفاظ فى الوضع وتتناسب فى النظم .

ألا ترى أنه عز وجل قال فى غير هذا المكان « وأقسموا بالله جهد أيمانهم »(٢) لما كانت جميع ألفاظ هذا الكلام المجاورة لهذا القسم كلها مستعملة متداولة لم تأت فيها لفظة غريبة تفتقر إلى مجاورة مايشاكلها فى الغرابة ويلائمها(٣) .

إن الجملة القرآنية قد تعاطفت فيها الكلمة مع سابقتها ، وتآزرت مع لاحقتها تآزراً يخلق من الجميع أسلوبا محكم النسج مترابط الفواصل والفقرات ، لاخلل فيه ولا انفصام .

---

(١) يوسف ٨٥
(٢) فاطر ٤٢ .
(٣) بديع القرآن ص ٧٧

اقرأ قوله تعالى « والعاديات ضبحا . فالموريات قدحا . فالمغيرات صبحا . فأثرن به نقعاً . فوسطن به جمعا »(١) ، إنك تحس بحركة واضحة عنيفة هى حركة الخيل فى ميدان المعركة ، وهذه الحركة ناشئة من إيحاء الألفاظ ، الخيل تعدو ، وأنفاسها تضطرب ، وإنها لتندفع فى الغارة على العدو ، وتجرى على أرض المعركة ، فتثير غباراً فى الجو ، وهكذا ..

وإنك لترى الألفاظ تتآخى وتتعانق ، وتترابط وتتوافق ، فتعطى بناء صياغياً محكما وإيجازاً بليغاً موحياً ، يشخص المعركة ، ويصور المشهد ويستحضر الحركة والعدو ، ثم تحس من خلال الإيقاع بموسيقى عنيفة هى موسيقى المعركة ، إن الألفاظ ملائمة لذلك الجو منتزعة منه ، وكل كلمة تؤدى دورها فى تجلية المشهد(٢) .

واقرأ قوله تعالى : « فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار »(٣)

أو لاتجد هذه الثياب من النار موحية لك بما يقاسيه هؤلاء القوم من عذاب أليم ، فقد خلقت الثياب يتقى بها اللابس الحر والقر ، فماذا يكون الحال إذا قدت الثياب من النيران ؟

واقرأ قوله تعالى : « لهم من فوقهم ظلل من النار ، ومن تحتهم ظلل ، ذلك الذى يخوف الله به عباده ياعباد فاتقون »(٤) فإن الظلة إنما تكون ليتقى بها وهج الشمس ، فكيف إذا كانت الظلة نفسها من النيران؟

واقرأ قوله تعالى : « وإذ أخذنا ميثاقكم لاتسفكون دماءكم ولاتخرجون

---

(١) العاديات ١ - ٥

(٢) واقعية المنهج القرآنى ص ٤٣٨

(٣) الحج ١٩

(٤) الزمر ١٦

أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون . ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان »(١) .

أولا توحى إليك جملة « ثم أنتم هؤلاء » بالفرق بين ما كان يجب أن يكونوا عليه ، وماهم حقيقة عليه . فأى خيبة أمل تملأ النفس منهم ، أولا تدل هذه الجملة القصيرة على سخط شديد ، وتعجب لأمور ، ما كان ينتظر حدوثها ، وتتائج كانت المقدمات تمهد لغيرها ؟

وقوله تعالى : « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين »(٢) .

أولا تحس فى قوله سبحانه « تلك أمانيهم » بالتهكم اللاذع ، وأن تلك الأماني التى تجول فى صدورهم لن تجد لها سبيلا إلى التحقق فى غير أحلامهم(٣) ؟

إنك ترى ألفاظ الجملة القرآنية تتآخى وتتعانق ، وتترابط وتتوافق ، فتعطى بناء صياغيها محكما ، وإيجازا بليغا موحيا .

اقرأ قوله تعالى : « أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد . أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال فى أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »(٤) .

---

(١) البقرة الآية ٨٥
(٢) البقرة الآية ١١١
(٣) من بلاغة القرآن ص ٦٨ ، ١٠٧
(٤) الرعد ٥

تأمل ما اشتملت عليه الآية الكريمة من الجمل، وصفات تلك الجمل وطريقة نظمها، إنها في عمومها جمل اسمية، مصدرة بالاستفهام في بعضها وهذا الاستفهام إنكارى، ذلك لأن المعنى الذى تسوقه، هو إنكار الكافرين مسألة المعاد، ولما كان الإنكار منهم قويا يؤكده عدم إيمانهم بما وضح لهم عن هذا الشأن، توالت التأكيدات بالجمل الإسمية حسماً للموقف.

وتأمل ذلك الربط العجيب بواسطة حرف العطف، وما أحدثه من تناسق صوتى يملأ جرسه الفم، ويقرع الآذان، ووراء ذلك التكرار بلفظة « أولئك » الذى بواسطته أدت الجملة معناها وافيا، وقررت ما يستوجبه أمر هؤلاء المنكرين الذين غلت عقولهم وأبوا إلا عمى البصيرة عن الحق، فالأغلال والنار جزاء لهم من جنس عملهم.

لقد تدرج وصف العذاب بما هو شديد إلى ما هو أشد إمعاناً فى النكاية بهؤلاء المنكرين، لإمعانهم فى الكفر والضلال.

وانظر ختام الآية من قوله تعالى: «هم فيها خالدون» وتأمل ما أحدثته بلاغة التقديم وتوسيط ضمير الفصل « هم » بين الصدر والعجز، ففى ذلك تأكيد العذاب بالخلود فيه، ليس لمنكر البعث فحسب، وإنما للجمع المدلول عليه بقوله وسط الآية: « أولئك الذين كفروا بربهم».

وقد وافق توسيط الضمير فى آخر الآية توسيط لفظ الكافرين فى صدرها، فأى إحكام فى النظم يبلغ مثل ذلك(١)؟

---

(١) انظر تفسير أبى السعود جـ ٣ صـ ٢٠١ مطبعة السعادة بمصر، والنظم القرآنى فى سورة الرعد صـ ٨١

واقرأ قوله تعالى : « قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا أو نهارا ماذا يستعجل منه المجرمون . أثم إذا ماوقع آمنتم به آلآن وقد كنتم به تستعجلون »(١) .

إن المعنى : نبئونى عن حالكم إن جاءكم العذاب بغتة فى ليل أو نهار ، ماذا أنتم يومئذ صانعون ؟ إنكم هنالك بين أمرين : فإما الإصرار على ماأنتم عليه الآن من تكذيب واستعجال ، وإما الإيمان . فأيهما تختارون ؟ أتستعجلون بالعذاب يومئذ كما تستعجلون به اليوم ؟ كلا فإنكم مجرمون ، وكيف يتشوق المجرم رؤية العذاب الذى إن جاء فهو لامحالة مواقعه ؟

ثم نبئونى : أى نوع منه تستعجلون ؟ فإنه ليس نوعا واحداً بل هو ألوان وفنون « أم » أنتم اليوم تكذبون ثم إذا وقع بعد حين آمنتم به ؟ ألا إنه لن ينفعكم يومئذ إيمانكم بعد أن ماطلتم وسوفتم حتى ضيعتم الفرصة ، وفاتكم وقت التدارك . بل هنالك يقال لكم تنديما وتحسيراً آلآن تؤمنون وقد كنتم به تكذبون وتستعجلون ؟

هذا هو المعنى فى ثوبه الطبيعى ، فانظر كم من كلمة ، وكم من جملة طويت فى صدر الكلام وفى شقيه ؟ وكيف أنها حين طويت لم يترك شىء منها إلا وقد جعل فى اللفظ مصباح يكشف عنه ، ومفتاح يوصل إليه فوضع استفهامين متقابلين فى الكلام دل على أن هنالك استفهاما جامعا لهما مرددا بينهما يقال فيه : ماذا تصنعون وأى الطريقين تسلكون ؟ والاستفهام عن الصنف المستعجل به من العذاب دل على استفهام تمهيدى قبله عن حصول أصل الاستعجال ، وكلمة « المجرمون » دلت على استحالة هذا الشق من الترديد ، وكلمة « ثم » العاطفة دلت على المعطوف عليه

---

(١) يونس ٥٠ ، ٥١

المطوى بينها وبين الهمزة، ولفظ الظرف « آلآن » دل على عامله المقدر ، وقس على ذلك سائر المحذوفات ، حتى إن مدة الاستفهام الداخلة على هذا الظرف قد دلت على طول مدة التسويف الذى منع من قبول إيمانهم ، لأنهم عمروا ما يتذكر فيه من تذكر .

فمن الذى يستطيع أن يجرى فى هذا المضمار شرطاً أو شرطين ، ثم لا تضطرب أنفاسه ، ولا تكبو به ركائب البيان وأفراسه ؟

اللهم إن من دون ذلك لشقة بعيدة ، وسفراً غير قاصد ، وإن فى دون ذلك لحداً للإعجاز (١) .

واقرأ قوله تعالى : « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف ، إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا . حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم ، وبنات الأخ وبنات الأخت ، وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم ، وأخواتكم من الرضاعة ، وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن ، فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم ، وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف ، إن الله كان غفوراً رحيما . والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم ، كتاب الله عليكم وأحل لكم ماوراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين ، فما استمتعتم به منهن ، فآتوهن أجورهن فريضة ، ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة ، إن الله كان عليما حكيما . ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ، والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير

---

(١) النبأ العظيم ص ١٤١

مسافحات ، ولا متخذات أخدان ، فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة ، فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ، ذلك لمن خشي العنت منكم ، وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم»(١)

إن هذه الآيات من آيات الأحكام ، لم يستعمل فيها المجاز ولا التشبيه، ومع ذلك هي بالغة من البلاغة حد الإعجاز القرآني ، فالتآخي بين الألفاظ والمعاني ثابت ، حتى إن كل كلمة فيها حكم، تومىء إلى التي تليها، مع بيان الحكمة الشرعية والتعليل لبيان المحرمات التي حرمها ، وكانت حلالا في الجاهلية في زعمهم ، كزواج من كانت زوجة لأصل من أصوله ، وابتدأ بها سبحانه لما لها من خطر وشأن ، إذ يتبين تحريم ما أحلوا بزعمهم، وما يبتدأ به الكلام يكون قوي التأثير ، وقد وصفه سبحانه بأنه فحش في الواقع ، لأنه أمر غير مألوف في الطبائع السليمة ، والأخلاق الكريمة، وأنه ممقوت عند الناس، لا يفعله رجل يألفه الناس بل يمقتونه ، ولذلك كان يسمى عند العرب « نكاح المقت » فمع أن الجاهلية ما كانت تحرمه بزعمها ، كانت تكرهه وتمقته ، ولا يفعله الكرام .

ولما جاء النص الكريم بتحريم الأمهات ، وهن الأصول من الأعلى ، استشرفت النفس لمعرفة حال البنات ، أتحل أم تحرم ، فجاء التحريم في وقت الاستشراف إليه ، والتطلع نحوه ، فكان البيان وقت الحاجة إليه، وكذلك الأخوات ، وهن أولاد الآباء والأمهات، والعلاقة بهن تلي العلاقة بالأولاد، ثم جاء من بعد أولاد الأبوين ، وهن الأخوات ، أولاد الأجداد ، وهن العمات ثم الخالات فكانت كل طائفة ممهدة لذكر التي تليها ، تجذبها إليها بمقتضى تداعي المعاني ، كل معنى يدعو أخاه ، وكل واحدة تلتحم مع أختها في تآلف لفظي وتآخ معنوي .

---

(١) النساء ٢٢ — ٢٥

ولقد كانت المرضع تعد أماً كالأم النسبية ، لأن هذه إذا كانت قد حملته في بطنها ، وغذته من دمها جنيناً ، فتلك قد رضعته في حجرها وغذته من لبنها رضيعا ، كما كانت الأولى ، فكان من تداعي المعاني أن يذكر في إيجاز غير مخل الأمهات المرضعات ، ومن التقى معه على ثدي واحد .

وكان من مقتضى التناسق المعنوي أن تذكر بعد صلات النسب الصلات السببية وهي المصاهرة ، فابتدأ بأمهات الزوجات ، ثم اتجه الذهن بعد تحريم أمهات نسائكم إلى الربائب ، لأنه إذا ذكرت الأم تطلعت النفس إلى ذكر حكم البنت ، فذكر بعد تحريم أمهات الزوجات ما يتعلق بتحريم بنات النساء وهن الربائب ، وذكر حكمة التحريم وهو أنهن في حجره وكنفاته .

وإذا ذكرت أمهات الزوجات وبناتهن ، وزوجات الآباء ، يكون لتتميم القول ولما يستدعيه قانون تداعي المعاني أن تذكر زوجات الأبناء أهن حلال أما لا ؟

وهكذا نرى أن المعاني كل واحدة تدعو السابقة فتلاحقها في اتساق وتنسق جامع .

وكل ذلك في نغم متآخ ، وفي صورة بيانية من مجموع القول ، فعندما تقرأ الآيات من أولها إلى آخرها ، تجد صورة بيانية لأسرة متكاملة ، ليس فيها تقاطع ، بل فيها تراحم وتواصل وعبة ومودة ، فما كان ذلك التحريم إلا لتكون المودة هي الواصلة ، فلا يمقت ولد أباه ، ولا يعتدي أب على ابن .

وإن ما اختص به القرآن من تقابل بين الحقائق في البيان ، وتوافق في العبارات من غير منافرة ، متحقق ثابت لا مجال لإنكاره ، وما اختص به العبارات من إشراق وضياء ، تجده منيراً حول الكلمات .

وإذا كان هذا النظم البديع وهذا الانسجام المحكم فى آيات الزواج وتكوين الأسرة .

فاقرأ حكم الله إذا تنافر ودها ، وأصبح التفرق بينهما أمراً لا بد منه :

قال تعالى : « يا أيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ، وأحصوا العدة ، واتقوا الله ربكم ، لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن ، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ، وتلك حدود الله ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا . فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف ، وأشهدوا ذوى عدل منكم ، وأقيموا الشهادة لله ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا . واللائى يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر ، واللائى لم يحضن ، وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ، ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا . ذلك أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا . أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن ، وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن ، فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف ، وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى. لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه ، فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا »(١) .

إنك ترى من هذه النصوص القرآنية أنها تضمنت أحكاما كثيرة ، فقد تضمنت أحكام الطلاق وأحكام العدة ، وأحكام الرجعة ، وأحوال المعتدات ،

---

(١) الطلاق ١ — ٧

كما تضمنت بعض أحكام الرضاعة، وأحكام النفقات بين الأزواج، وخروج المعتدات من بيوتهن.

وهنا نلاحظ ملاحظة نفسية قد نبه إليها القرآن الكريم في ألطف تعبير وأعطف نص، وكأنه بلسم لشفاء نفوس مجروحة، قد أرثتها حرقة الألم بسبب الفراق.

ذلك أن الآيات موضوعها الطلاق، وهو لا يكون إلا إذا تعذر الوفاق فالنفوس تكون مضطربة، واليأس يكون مخيما. والعلاقات تكون في حال آيسة، ولذلك نجد فتح باب الأمل لتلك النفوس التي اعتراها يأس من الحياة الزوجية السليمة إذ يقول سبحانه بعد وضع الحدود، وأن من يتعداها يظلم نفسه: «لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً»(١).

ثم يبين سبحانه وتعالى العدة، ويبين أنها فيصل تفرقة أو عودة، وأن المطلوب إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، ويذكر أن الأمر قد يكون في طياته ما يخرج النفوس من مضطرب الخلاف إلى متسع الوفاق، فيقول سبحانه «ومن يتق الله يجعل له مخرجا»(٢).

من ذلك المزدحم الذي تعترك فيه الأحاسيس والمشاعر بين عشرة طيبة، أو فرقة لا ظلم فيها، ويقول سبحانه وتعالى في ذلك المقام «قد جعل الله لكل شيء قدرا»(٣).

وبعد أن يبين سبحانه وتعالى العدة للآيسة من الحيض، ومن لم تره، وهي ثلاثة أشهر، وكذلك عدة الحامل، يقول لنفوس محرجة آسفة حزينة

---

(١) الطلاق ١ (٢) الطلاق ٢
(٣) الطلاق ٣

عرفت الحاضر والماضي إن خيراً وإن شراً ، وهي تجهل القابل وما يطويه يقول سبحانه : « ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً »(١) .

ويذكر الله سبحانه وتعالى وجوب النفقة في مواضع وجوبها ، وأحوال وجوبها ، والإرضاع ووجوبه ، ثم يبين مقدار الواجب على أن يكون على قدر طاقته ، على الموسع قدره وعلى المقتر قدره ، « لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا »(٢) .

وهكذا نجد العبارات القرآنية السامية فيها طمأنة النفس على ما يطويه المستقبل ، فيجعل لهم رجاء بمخرج يخرجهم ، أو يجعل من أمره يسرا ، وإن هذا النوع من القول هو الذي يقال عندما تتأزم النفوس ، وتتقطع العلاقات بعد ودكان دائماً أو كان يرجى له الاستمرار ، ويشترط لتحقق ذلك الأمر ، الذي فرج به الكروب التقوى والعمل الصالح ، وإن هذين إذا تحققا في تلك الحال طابت النفوس ورضيت بالواقع إن لم يكن منه مناص ، وغيرته بالإيمان إن كان ثمة محل للتغيير .

وإن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ، ليعلم الذين يرون أسرة قد ضاقت صدور أهلها حرجا ، واستولى عليها من الحياة الزوجية الصالحة يأس وغلبت شدتها ، أن يفتح باب الرجاء فيها بعد إغلاق الآمال ، وأن يكون ميسراً ولا يكون معسراً ، وأن يكون مبشراً ، ولا يكون منفراً .

وإن تلك النصوص القرآنية السامية تجد فيها البلاغة التي تصل إلى أعلى الدرجات . فابتدأ الله تعالى الخطاب للنبي ﷺ ، ثم خاطب المسلمين من بعد مواجهته وخوطبوا بالجمع للإشارة إلى تكافل جمعهم وتضافرهم وتعاونهم

---

(١) الطلاق ٤

(٢) الطلاق ٧

على البر والتقوى فى المواطن الحرجة والاستعانة بالمشورة والرأى ، وقد أمر بالرفق بالمرأة ، فلا يطلقها إلا وهى متصلة بحال العدة ، لكيلا يرهقها بإطالتها ، فتكون بين اليأس والرجاء فى قلق نفسى . وهكذا استمرت الأحكام الرفيقة تبين الآيات منها حكما بعد حكم .

وجمال التعبير يشرق دائما ، وحلاوة النغم تنساب فى النفس انسياب النهر العذب ، كما تنطلق الأحكام إلى العقل والقلب فى اتعاظ واعتبار واهتداء إلى الحق وفى انسجام فكرى ، وإذا كان سرد الأحكام خصوصا فى موضع دقيق كأحكام الأسرة يكون بادىء الرأى فى كلام الناس جافا غير مشرق ، فإن ذلك كلام الناس .

أما فى كلام الله تعالى فإنه مشرق طيب الأعراق ، واضح القسمات فى نغم هادىء ، يطب القلوب جفاءها فيذهب ، والنفوس فتق الشح ، وهو عظة وهداية(١) .

إن الجملة القرآنية قد كونت من كلمات قد اختيرت ثم نسقت فى سلك من النظام بديع فيه حسن تنسيق ودقة ترتيب وإحكام فى تلاؤم .

يقول الرافعى : لو تدبرت الآيات التى لا تقرأ فيها إلا ما يسرده من الأسماء الجامدة ، وهى بالطبع مظنة ألا يكون فيها شىء من دلائل الإعجاز ، فإنك ترى إعجازها أبلغ ما يكون فى نظمها وجهات سردها ، ومن تقديم اسم على غيره ، أو تأخيره عنه ، لنظم حروفه ومكانه من النطق فى الجملة ، أو لنكتة أخرى من نكت المعانى التى وردت فيها الآية .

تأمل قوله تعالى: « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع

---

(١) انظر المعجزة الكبرى ص ٢١٤ — ٢١٩

والدم آيات مفصلات »(١) فإنها خمسة أسماء أخفها في اللفظ « الطوفان والجراد والدم » وأثقلها « القمل والضفادع » فقدم « الطوفان » لمكان المدين فيها حتى يأنس اللسان بخفتها ، ثم الجراد وفيها كذلك مد .

ثم جاء باللفظين الشديدين مبتدئا بأخفهما في اللسان وأبعدهما في الصوت لمكان تلك الغنة فيه ، ثم جيء بلفظة « الدم » آخراً ، وهي أخف الخمسة وأقلها حروفا ليسرع اللسان فيها ، ويستقيم لها ذوق النظم ، ويتم بها هذا الإعجاز في التركيب .

وأنت فمهما قلبت هذه الأسماء الخمسة ، فإنك لاترى لها فصاحة إلا في هذا الوضع ، فلو قدمت أو أخرت لبادرك التهافت والتعثر ، ولأعنتك أن تجيء منها بنظم فصيح ، ثم لاريب أحالك ذلك عن قصد الفصاحة ، وقطعك دون غايتها ، ثم لخرجت الأسماء في اضطراب النطق على ذلك بالسواء ، ليس يظهر أخفها من أثقلها ، وبهذا الذي قدمناه ونحوه . . تعرف أن القرآن إنما أعجز في اللغة بطريقة النظم ، وهيئة الوضع ، ولن تستوي هذه الطريقة إلا بكل مافيه على جهته ووضعه ، فكل كلمة منه مادامت في موضعها فهي من بعض إعجازه(٢) .

وتأمل جمال الفصل بين الجمل في قوله تعالى : « ألم . ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين »(٣) .

فإنك ترى آيات قد التحم نسجها ، وارتبط بناء بعضها ببعض ، تسلم الجملة إلى أختها في التئام واتساق .

---

(١) الأعراف ١٣٣
(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٢٦٦
(٣) البقرة ١ ، ٢

فالجملة الأولى : قد وصفت القرآن بالكمال ، ووصفته الجملة الثانية بأنه لايعلق به الريب ، لا فى أخباره ، ولا فى نسبته إلى الله ، وفى الجملة التالية جعله هاديا لأولئك الذين يخشون ربهم ويتقونه(١) .

يقول الزمخشرى : والذى هو أرسخ عرقا فى البلاغة ، أن يضرب عن هذه المحال صفحا ، وأن يقال : إن قوله « ألم » جملة برأسها ، أوطائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها ، و « ذلك الكتاب » جملة ثانية ، و« لاريب فيه » ثالثة و « هدى للمتقين » رابعة ، وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة ، وموجب حسن النظم ، حيث جىء بها متناسقة هكذا من غير حرف نسق وذلك لمجيئها متآخية ، آخذا بعضها بعنق بعض ، فالثانية متحدة بالأولى ، معتنقة لها ، وهلم جرآ إلى الثالثة والرابعة .

بيان ذلك أنه نبه أولا على أنه الكلام المتحدى به ، ثم أشير إليه بأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال ، فكان تقريراً لجهة التحدى ، وشدا من أعضاده ، ثم نفى عنه أن يتشبث به طرف من الريب ، فكان شهادة وتسجيلا بكماله ، لأنه لا كمال أكمل مما للحق واليقين ، ولانقص مما للباطل والشبهة .

وقيل لبعض العلماء : فيم لذتك ؟ فقال : فى حجة تتبختر اتضاحا ، وفى شبهة تتضاءل افتضاحا ، ثم أخبر عنه بأنه هدى للمتقين ، فقرر بذلك كونه يقينا ، لايحوم الشك حوله ، وحقا لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولامن خلفه .

ثم لم تخل كل واحدة من الأربع بعد أن رتبت هذا الترتيب الأنيق ، ونظمت هذا النظم السرى من نكتة ذات جزالة(٢) .

---

(١) من بلاغة القرآن ص ١٠٦

(٢) الكشاف جـ ١ ص ١٢١ ، ١٢٢ ط الحلبى ١٩٧٢

وقال الإمام عبد القاهر : قوله « لاريب فيه » بيان وتوكيد وتحقيق لقوله « ذلك الكتاب » وزيادة تثبيت له ، وبمنزلة أن تقول : هو ذلك الكتاب هو ذلك الكتاب ، فتعيده مرة ثانية لتثبته ، وليس يثبت الخبر غير الخبر ، ولا شيء يتميز به عنه فيحتاج إلى ضام يضمه إليه ، وعاطف يعطفه عليه .

ومثل ذلك قوله تعالى : « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون. ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ، ولهم عذاب عظيم »(١) .

قوله تعالى : « لايؤمنون » تأكيد لقوله « سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم » وقوله : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم » تأكيد ثان أبلغ من الأول ، لأن من كان حاله إذا أنذر مثل حاله إذا لم ينذر ، كان في غاية الجهل ، وكان مطبوعا على قلبه لا محالة .

وكذلك قوله عز وجل « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون »(٢) .

إنما قال يخادعون ولم يقل ويخادعون ، لأن هذه المخادعة ليست شيئا غير قولهم « آمنا » من غير أن يكونوا مؤمنين ، فهو إذن كلام أكد به كلام آخر هو في معناه ، وليس شيئا سواه .

ومن الواضح البين في هذا المعنى قوله تعالى : « وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقرا »(٣) .

---

(١) البقرة ٦ ، ٧
(٢) البقرة ٨ ، ٩ .
(٣) لقمان ٧

لم يأت معطوفا نحو « وكأن فى أذنيه وقرا » لأن المقصود من التشبيه بمن فى أذنيه وقر هو بعينه المقصود من التشبيه بمن لم يسمع إلا أن الثانى أبلغ وآكد فى الذى أريد ، وذلك أن المعنى فى التشبيهين جميعاً أن ينفى أن يكون لتلاوة ماتلى عليه من الآيات فائدة معه ، ويكون لها تأثير فيه، وأن يجعل حاله إذا تليت عليه كحاله إذا لم تتل ، ولا شبهة فى أن التشبيه بمن فى أذنيه وقر أبلغ وآكد فى جعله كذلك من حيث كان من لا يصح منه السمع — وإن أراد ذلك — أبعد من أن يكون لتلاوة مايتلى عليه فائدة من الذى يصح منه السمع إلا أنه لا يسمع إما اتفاقاً وإما قصداً إلى ألا يسمع فاعرفه وأحسن تدبره(١) .

وتأمل جمال الوصل ، وسر إيثار الواو حيناً والفاء وثم حيناً آخر ، لاختلاف معانيها فى قوله تعالى : « هو يطعمنى ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذى يميتنى ثم يحيين »(٢) .

يقول ابن القيم : عطف أولا بالواو لأن الإطعام والإسقاء ليس فيهما ترتيب واجب مع أن تأخير الإسقاء أولى ولذا أخره فى الذكر ، وعطف ثانياً بالفاء إذ لامهلة بين المرض والشفاء ، وعطف بثم لما بين الإماتة والإحياء من المهلة ، ومع ذلك نسب الموت إلى الله لما فى ذلك من إظهار القدرة والقهر ، ونسب المرض إلى نفسه لأن الأدب ألا ينسب إلى الله تعالى إلا مايحمد ، والموت وإن كان مذموما ، لكنه عند قائل هذا محمود لأنه على يقين من السعادة الأخروية .

---

(١) دلائل الإعجاز تحقيق السيد محمد رشيد رضا ط ١٩٦١ — ص ١٥٠

(٢) الشعراء ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١

ومن ذلك قوله تعالى: « فحملته فانتبذت به مكاناً قصيـــا . فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة »(١) .

إنما عطف بالفاء مع أن بين مجيء المخاض والحمل مهلة لأن المهلة التى بين حملها ومخاضها كانت مدة يسيرة ، قيل كانت يوما ، وقيل كانت ثلاث ساعات ، وعليه أكثر المفسرين ، حتى يتميز حملها عن سائر النساء، ويكون ذلك كرامة لها ، فعلى هذا يكون المراد بالآية بيان ذلك(٢) .

وتأمل جمال الوصل بالواو لما بين الجمل من ترابط محكم ، وتلاؤم بين فى قوله تعالى: « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت . وإلى الأرض كيف سطحت »(٣) .

فالمطلوب فى الآية التأمل فيما خلق الله ليصلوا بهذا التأمل إلى الإيمان بالبعث الذى يبنى عليه أساس الدين ، والتناسب هنا بين الجمل واضح ، فقد بدأ حديثه بالإبل التى هى عنصر أساسى فى حياة البدوى فى صحرائه ، وانتقل من الإبل إلى ما يرونه أمامهم فى كل حين ، من سماء رفعت بلا عمد ، والسماء عند البدوى مكانة خاصة ، يتجه إليها ببصره، يستنزل منها الغيث، ويهتدى بنجومها فى سراه بالليل ، فإذا هبط ببصره قليلا رأى هذه الجبال الشاهقة، منصوبة تناطح السماء بقممها، وترسو فى ثبات واطمئنان على أرض مهدت له ، وسطحت أمامه ، أولا ترى أن تنقل البصر بين هذه المخلوقات تنقل هادىء طبيعى لاقفز فيه ، وأن ارتباط بعضها ببعض فى طبيعة البدوى مهد الربط بينها ، وعطف بعضها على بعض ؟

---

(١) مريم ٢٢ ، ٢٣
(٢) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن لابن القيم إمام الجوزية ص ١٨٨
(٣) الغاشية : ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠

وقوله تعالى: «إذا السماء انفطرت . وإذا الكواكب انتثرت ، وإذا البحار فجرت . وإذا القبور بعثرت»(١) .

اتصلت الجمل لأن تلك المظاهر من أمارات القيامة ، وما أقوى الصلة بين السماء تنشق ، والكواكب تنتثر ، لانظام يجمعها ، ولاجاذبية تحفظها في مكانها ، وما أقوى الصلة — أيضاً — بين تفجر البحار فتطغى مياهها ، وبعثرة القبور تخرج مادفن فيها من الموتى ، فكأنها تنفجر كذلك .

وقوله تعالى : « يابني أقم الصلاة وأمر بالمعروف ، وانه عن المنكر ، واصبر على ما أصابك . إن ذلك من عزم الأمور . ولا تصعر خدك للناس ، ولا تمش في الأرض مرحا ، إن الله لايحب كل مختال فخور . واقصد في مشيك ، واغضض من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير(٢) » .

فإنه إذا كانت الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، فالمقيم لها جدير أن يأخذ على عاتقه الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإن من يعرض نفسه لذلك ، جدير أن يلم به بعض الأذى ، فوصى من ينهض بهذا العبء أن يحتمل ويصبر ، وإذا كان قد أمره بالصلاة وهي خضوع للرب فجدير به ألا يمتلىء بالتيه ولا بالخيلاء ، وأن يسير على الأرض في تؤدة، ويتحدث إن تحدث في وداعة وهدوء .

ومن ذلك ترى هذه الصلات القوية التي تربط بين هذه الجمل ربطاً محكما(٣) .

---

(١) الانفطار ١ — ٤

(٢) لقمان ١٧ ، ١٨ ، ١٩

(٣) من بلاغة القرآن ص ١٧٤ — ١٧٦

وتأمل جمال الوصل بالفاء تارة، وبـ «ثم» تارة أخرى فى قوله تعالى: «قتل الإنسان ما أكفره. من أى شىء خلقه. من نطفة خلقه فقدره. ثم السبيل يسره. ثم أماته فأقبره. ثم إذا شاء أنشره»(١).

ألا ترى أنه لما قال: «من نطفة خلقه» كيف قال «فقدره»، ولم يقل ثم قدره لأن التقدير لما كان تابعا للخلقة، وملازما لها عطفه عليها بالفاء، وذلك بخلاف قوله «ثم السبيل يسره» لأن بين خلقته وتقديره فى بطن أمه، وبين إخراجه منه وتسهيل سبيله مهلة وزمانا، فلذلك عطف بثم. وعلى هذا جاء قوله تعالى: «ثم أماته فأقبره. ثم إذا شاء أنشره» لأن بين إخراجه من بطن أمه، وبين موته تراخيا وفسحة وكذلك بين موته ونشورة أيضا، ولذلك عطفهما بثم، ولما لم يكن بين موت الإنسان وإقباره تراخ ولا مهلة عطفه بالفاء.

وقوله: «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين. ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما، ثم أنشأناه خلقا آخر»(٢).

ففى الآية المتقدم ذكرها قال: «من نطفة خلقه فقدره» فعطف التقدير على الخلق بالفاء، لأنه تابع له، ولم يذكر تفاصيل حال المخلوق، وفى هذه الآية ذكر تفاصيل حاله فى تنقله، فبدأ بالخلق الأول، وهو خلق آدم من طين، ولما عطف عليه الخلق الثانى الذى هو خلق النسل عطفه بثم، لما بينهما من التراخى، وحيث صار إلى التقدير الذى يتبع بعضه بعضا من غير تراخ عطفه بالفاء، ولما انتهى إلى جعله ذكراً أو أنثى — وهو آخر الخلق — عطفه بثم(٣).

---

(١) عبس ١٧ — ٢٢

(٢) المؤمنون ١٢ — ١٤

(٣) المثل السائر حـ ٢ ص ٥٠

وتأتى الجملة الفعلية فى القرآن الكريم للدلالة على التجدد والحدوث ، كما تأتى الإسمية للثبوت والدوام .

انظر إلى قوله تعالى : « سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون »(١) فقد جاءت الجملة الأولى فعلية « أدعوتموهم » والجملة الثانية اسمية « أنتم صامتون » لتفيد الأولى التجدد والحدوث ، والثانية الدوام والاستمرار ، فيكون المعنى سواء عليكم أن تحدثوا دعاءهم ، أو أن تستمروا على صمتكم ، والمراد بالدعاء طلب الهداية والنجاة ، والموجه إليهم الدعاء هى الأصنام المعبودة من دون الله ، وكان الوثنيون الذين يعبدون هذه الأصنام من عادتهم أنهم لا يدعون هذه الأصنام إذا نزلت بهم شدة ، وإنما يدعون الله فقيل سواء عليكم أأحدثتم الدعاء على غير عادة ، أم بقيتم مستمرين على عادة صمتكم ، ولو قيل سواء عليكم أدعوتموهم أم صمتم لأفاد أن صمتهم عن دعائهم لم يكن ثابتا ، وإنما هو صمت حادث ، وهذا بخلاف الواقع .

ومثله قوله تعالى : « قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين »(٢) . فقد عبروا بالجملة الفعلية فى قولهم « أجئتنا » لتشير إلى التجدد ، وكأنهم يقولون : أحدث منك مجىء بالحق ولم تكن كذلك ، وعبروا بالجملة الإسمية ثانيا فى قولهم « أنت من اللاعبين » ليفيدوا الاستمرار والدوام ، يعنى أم أنت مستمر فى لعبك الذى عهدناه فيك ، ولو قالوا : أم لعبت ، وجاءوا بالفعلية لأفاد أن اللعب حادث طارىء ، وأنه كان قبل ذلك جادا غير هازل ، وهذا غير مراد لهم(٣) .

وقوله تعالى : « وإذا لقوا الذين آمنو قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى

---

(١) الأعراف ١٩٣
(٢) الأنبياء ٥٥
(٣) خصائص التراكيب ص ٢٣٧

شياطينهم قالوا إنا معكم »(١) فإنهم إنما خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية وشياطينهم بالجملة الاسمية المحققة بإن المشددة لأنهم فى مخاطبة إخوانهم بما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اعتقاد الكفر والبعد من أن يزلوا عنه على صدق ورغبة ووفور نشاط ، فكان ذلك متقبلا منهم ، ورائجا عند إخوانهم ، وأما الذى خاطبوا به المؤمنين ، فإنما قالوه تكلفا وإظهاراً للإيمان خوفا ومداجاة ، وكانوا يعلمون أنهم لو قالوه بأوكد لفظ وأسده لما راج لهم عند المؤمنين إلا رواجا ظاهراً لا باطنا ، ولأنهم ليس لهم فى عقائدهم باعث قوى على النطق فى خطاب المؤمنين بمثل ما خاطبوا به إخوانهم من العبارة المؤكدة ، فلذلك قالوا فى خطاب المؤمنين « آمنا » وفى خطاب إخوانهم « إنا معكم » وهذه نكت تخفى على من ليس له قدم راسخة فى علم الفصاحة والبلاغة .

ومما يجرى هذا المجرى ورود لام التوكيد فى الكلام ، ولا يجىء ذلك إلا لضرب من المبالغة ، وفائدته أنه إذا عبر عن أمر يعز وجوده ، أو فعل يكثر وقوعه جىء باللام تحقيقا لذلك .

فما جاء منه قوله تعالى فى أول سورة « المنافقون » : « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون »(٢) .

فانظر إلى هذه اللامات الثلاث الواردة فى خبر إن ، والأولى وردت فى قول المنافقين وإنما وردت مؤكدة لأنهم أظهروا من أنفسهم التصديق برسالة النبى ﷺ وتملقوا له ، وفى باطنهم خلافه ، وأما ما ورد فى الثانية والثالثة فصحيح لا ريب فيه ، واللام فى الثانية لتصديق رسالته ، وفى الثالثة

---

(١) البقرة الآية ١٤
(٢) المنافقون ١

التكذيب المنافقين فيما كانوا يظهرونه من التصديق الذين هم على خلافه .

وكذلك ورد قوله تعالى فى سورة يوسف عليه السلام « قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون . أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون »(١)

فإنه إنما جيء باللام ههنا لزيادة التوكيد فى إظهار المحبة ليوسف عليه السلام والإشفاق عليه ، ليبلغوا الغرض من أبيهم فى السماحة بإرساله معهم.

ومن هذا الباب قوله تعالى : « أفرأيتم ما تحرثون . أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون . لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون » ثم قال : « أفرأيتم الماء الذى تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون. لو نشاء جعلناه أجاجا فلو لا تشكرون »(٢) .

ألا ترى كيف أدخلت اللام فى آية المطعوم دون آية المشروب ، وإنما جاءت كذلك لأن جعل الماء العذب ملحا أسهل إمكانا فى العرف والعادة ، والموجود من الماء الملح أكثر من الماء العذب وكثيرا ما إذا جرت المياه العذبة على الأراضى المتغيرة التربة أحالتها إلى الملوحة ، فلم يحتج فى جعل الماء العذب ملحا إلى زيادة تأكيد ، فلذلك لم تدخل عليه لام التأكيد المفيدة زيادة التحقيق . وأما المطعوم فإن جعله حطاما من الأشياء الخارجة عن المعتاد ، وإذا وقع فلا يكون إلا عن سخط من الله شديد ، فلذلك قرن بلام التأكيد زيادة فى تحقيق أمره وتقرير إيجاده .

ومما يجرى هذا المجرى فى التوكيد لام الابتداء المحققة لما يأتى بعدها ، كقوله تعالى : « إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا »(٣) .

---

(١) يوسف ١١ (٢) الواقعة ٦٣ — ٧٠
(٣) يوسف ٨

فاللام فى « ليوسف » لام الابتداء ، وفائدتها تحقيق مضمون الجملة الواردة بعدها ، أى أن زيادة حبه إياهما أمر ثابت لامراء فيه (١) .

ومن جمال صياغة الجملة القرآنية ، ما نجده من تقديم وتأخير لبعض أجزائها .

وفى آية واحدة نستطيع أن نلحظ روعــــة الأداء فى وضع الجار والمجرور فى مكانه الخاص الدقيق فى الجملة ، ليؤدى المعنى الدقيق الخاص المطلوب ، وذلك فى قوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا »(٢) فقد أخر الجار والمجرور « على الناس » فى الأولى ، وقدم « عليكم » فى الثانية .

ولو تمعنا فى الحكمة المقصودة من تأخير الأول ، وجدنا أن المراد منها إثبات شهادتهم على الأمم ، وسبب تقديم الثانى اختصاصهم بكون الرسول شهيدا عليهم ، وفرق كبير بين المعنيين ، وقد تم التفريق بينهما بنقل الجار والمجرور من مكان إلى مكان ، فكان هذا التمييز .

وقد وردت فى القرآن آيتان متشابهتان ، ولم يكن الفرق بين الأولى والثانية إلا بتقديم ضمير وتأخير آخر ، وبهذا التقديم والتأخير اختلف المعنى اختلافا تاما .

قال تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم »(٣) .

وقال سبحانه فى آية أخرى : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم » (٤) .

فى الآية الأولى : « من إملاق » وفى الثانية « خشية إملاق » .

---

(١) المثل السائر ص ٥٥ ، ٥٦ (٢) البقرة الآية ١٤٣

(٣) الأنعام ١٥١ (٤) الإسراء ٣١

وفى الأولى : نحن نرزقكم وإياهم ، وفى الثانية « نحن نرزقهم وإياكم » .

الآية الأولى تخاطب آباء مملقين ، بدليل قوله « من إملاق » فكان من البلاغة أن يسرع ، فيعد هؤلاء الآباء بما يغنيهم من الرزق ، وأن يكمل ذلك بعدتهم برزق أبنائهم ، حتى تسكن نفوسهم ، ولا يجد القلق سبيلا إليها ، أما فى الآية الثانية ، فالخطاب للأغنياء بدليل قوله « خشية إملاق » فإنه لا يخشى الفقر إلا من كان غنيا ، إذ الفقير منغمس فى الفقر ، فكان من البلاغة أن يقدم وعد الأبناء بالرزق ، حتى يسرع بإزالة ما يتوهمون من أنهم بإنفاقهم على أبنائهم صائرون إلى الفقر بعـــد الغنى ، ثم مضى يكمل طمأنينتهم فوعدهم بالرزق بعد عدة أبنائهم به .

واقرأ قوله تعالى : « لا فيها غول »(١) فقد قدم الجار والمجرور ، ليفيد قصر عدم وجود الغول ـ الذى يغتال العقول ـ فى خمور الجنة . وليفيد فى الوقت ذاته أن خمور الدنيا فيها الغول والإسكار وتخريب العقول .

ويلاحظ أنه فى جملة واحدة نفى وإثبات ، وتقرير عدد من الحقائق ، وتشريع وهدى ، وما كانت الجملة لتزيد عن ثلاث كلمات .

واقرأ قوله تعالى فى وصف القرآن الكريم « لاريب فيه »(٢) .

" لم يقدم الجار والمجرور ، كما فعل فى الجملة السابقة ، لأن المراد من هذا التركيب جملة « لاريب فيه » أن ينفى الريب عن القرآن الكريم وحده ، دون أن يتعرض للكتب السماوية الأخرى بمدح أو غير مدح ، ولو عكس التعبير فقيل « لا فيه ريب » أدى إلى نفى الريب عن القرآن وإثباته فى الوقت ذاته لغيره من الكتب وهو غير مراد(٣) .

---

(١) الصافات ٤٧ (٢) البقرة الآية ٢

(٣) التعبير الفنى فى القرآن ص ١٨٩ ، من بلاغة القرآن ص ١١٧

وانظر إلى بلاغة الالتفات فى الجملة القرآنية لترى الحسن فى أبهى حلة .

يقول تعالى « الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . إياك نعبد وإياك نستعين . اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين »(١) .

يقول ابن الأثير : لما صار إلى العبادة التى هى أقصى الطاعات قال : إياك نعبد ، فخاطب بالعبادة اصراحا بها وتقربا منه عز اسمه بالانتهاء إلى محدود منها .

وعلى نحو من ذلك جاء آخر السورة فقال « صراط الذين أنعمت عليهم» فأصرح بالخطاب لما ذكر النعمة ، ثم قال : « غير المغضوب عليهم » عطفا على الأول ، لأن الأول موضع التقرب من الله بذكر نعمه ، فلما صار إلى ذكر الغضب جاء باللفظ منحرفا عن ذكر الغاضب ، فأسند النعمة إليه لفظا ، وزوى عنه لفظ الغضب تحننا ولطفا ، فانظر إلى هذا الموضع وتناسب هذه المعانى الشريفة التى الأقدام لا تكاد تطؤها ، والأفهام مع قربها صافحة عنها ، وهذه السورة قد انتقل فى أولها من الغيبة إلى الخطاب ، لتعظيم شأن المخاطب ثم انتقل فى آخرها من الخطاب إلى الغيبة لتلك الصفة بعينها ، وهى تعظيم شأن المخاطب أيضا ، لأن مخاطبة الرب تبارك وتعالى بإسناد النعمة إليه تعظيم لخطابه ، وكذلك ترك مخاطبته بإسناد الغضب إليه تعظيم لخطابه ، فينبغى أن يكون صاحب هـذا الفن من الفصاحة والبلاغة عالما بوضع أنواعه فى مواضعها .

---

(١) الفاتحة

ومن هذا الضرب قوله تعالى : « وقالوا اتخذ الرحمن ولداً . لقد جئتم شيئاً إداً »(١) .

وإنما قيل : « لقد جئتم » وهو خطاب الحاضر بعد قوله « وقالوا » وهو خطاب الغائب لفائدة حسنة ، وهي زيادة التسجيل عليهم بالجراءة على الله تعالى ، والتعرض لسخطه وتنبيه لهم على عظم ماقالوه ، كأنه يخاطب قوما حاضرين بين يديه منكراً عليهم وموبخا لهم .

ومما ينخرط في هذا السلك قوله تعالى : « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون . وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون »(٢)

الأصل في تقطعوا تقطعتم عطفاً على الأول ، إلا أنه صرف الكلام من الخطاب إلى الغيبة على طريقة الالتفات ، كأنه ينعى عليهم ماأفسدوه إلى قوم آخرين ويقبح عندهم مافعلوه ، ويقول : ألاترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله تعالى ، فجعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعا ، وذلك تمثيل لاختلافهم فيه وتباينهم ثم توعدهم بعد ذلك بأن هؤلاء الفرق المختلفة إليه يرجعون ، فهو مجازيهم على مافعلوا .

ومما جاء من الالتفات مراراً على قصر متنه وتقارب طرفيه قوله تعالى: « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير »(٣) .

قال أولا: « سبحان الذى أسرى » بلفظ الواحد ، ثم قال : « الذى

---

(١) مريم ٨٨ ، ٨٩
(٢) الأنبياء ٩٢ ، ٩٣
(٣) الإسراء ١

باركنا حوله » بلفظ الجمع ، ثم قال : « إنه هو السميع البصير » وهو خطاب غائب ، ولو جاء الكلام على مساق الأول لكان : سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى بارك حوله ليريه من آياته إنه هو السميع البصير ، وهذا جميعه يكون معطوفا على أسرى ، فلما خولف بين المعطوف والمعطوف عليه فى الانتقال من صيغة إلى صيغة كان ذلك اتساعا وتفننا فى أساليب الكلام ، ولمقصد معنوى هو أعلى وأبلغ .

لما بدأ الكلام بسبحان ردفه بقوله : الذى أسرى ، إذ لا يجوز أن يقال الذى أسرينا ، فلما جاء بلفظ الواحد والله تعالى أعظم العظماء ، وهو أولى بخطاب العظيم فى نفسه الذى هو بلفظ الجمع ، استدرك الأول بالثانى فقال «باركنا» ثم قال «لنريه من آياتنا» فجاء بذلك على نسق «باركنا» ثم قال «إنه هو» عطفا على أسرى ، وذلك موضع متوسط الصفة ، لأن السمع والبصر صفتان يشاركه فيهما غيره ، وتلك حال متوسطة . فخرج بهما عن خطاب العظيم فى نفسه إلى خطاب غائب ، فانظر إلى هذه الالتفاتات المترادفة فى هذه الآية الواحدة التى جاءت لمعان اختصت بها(١) .

وتأمل الحسن والبهاء ، والروعة والبيان فى توكيد الضميرين فى الجملة القرآنية . من البين أن المعنى المقصود إذا كان معلوما ثابتا فى النفوس ، فأنت بالخيار فى توكيد أحد الضميرين فيه بالآخر . وإذا كان غير معلوم ، وهو مما يشك فيه ، فالأولى حينئذ أن يؤكد أحد الضميرين بالآخر فى الدلالة عليه ، لتقرره وتثبيته .

فما جاء من ذلك قوله تعالى : «قالوا ياموسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين»(٢) فإن إرادة السحرة الإلقاء قبل موسى لم تكن معلومة عنده ،

---

(١) المثل السائر صـ ٧

(٢) الأعراف ١١٥

لأنهم لم يصرحوا بما فى أنفسهم من ذلك . لكنهم لما عدلوا عن مقابلة خطابهم موسى بمثله إلى توكيد ما هو لهم بالضميرين اللذين هما نكون ونحن دل ذلك على أنهم يريدون التقدم عليه والإلقاء قبله ، لأن من شأن مقابلة خطابهم موسى بمثله أن كان قالوا : إما أن تلقى وإما أن تلقى ، لتكون الجملتان متقابلتين لحيث قالوا عن أنفسهم ، وإما أن نكون نحن الملقين ، استدل بهذا القول على رغبتهم فى الإلقاء قبله .

وأما توكيد المتصل بالمتصل فكقوله تعالى « فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله ، قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا . قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا »(١) .

وهذا بخلاف قصة السفينة ، فإنه قال فيها : « ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا »(٢) والفرق بين الصورتين أنه أكد الضمير فى الثانية دون الأولى ، فقال فى الأولى « ألم أقل إنك » وقال فى الثانية : « ألم أقل لك إنك » وإنما جىء بذلك للزيادة فى مكافحة العتاب على رفض الوصية مرة على مرة ، والوسم بعدم الصبر ، وهذا كما لو أتى الإنسان ما نهيته عنه فلمته وعنفته ، ثم أتى ذلك مرة ثانية ، أليس أنك تزيد فى لومه وتعنيفه ؟ وكذلك فعل هنا ، فإنه قيل فى الملامة أولا « ألم أقل إنك » ثم قيل ثانيا « ألم أقل لك إنك » وهذا موضع يدق عن العثور عليه ببادوة النظر ما لم يعط المتأمل فيه حقه .

وأما توكيد المتصل بالمنفصل فنحو قوله تعالى « فأوجس فى نفسه خيفة موسى . قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى »(٣) .

---

(١) الكهف ٧٤، ٧٥
(٢) الكهف ٧١
(٣) طه ٦٧، ٦٨

فتوكيد الضميرين هنا فى قوله « إنك أنت الأعلى » أنفى للخوف من قلب موسى ، وأثبت فى نفسه الغلبة والقهر ، ولو قال : لاتخف إنك الأعلى ، أو فأنت الأعلى ، لم يكن له من التقرير والإثبات لنفى الخوف ما لقوله « إنك أنت الأعلى » .

وفى هـــذه الكلمات الثلاث وهى قوله « إنك أنت الأعلى » ست فوائد :

الأولى : « إن » المشددة التى من شأنها الإثبات لما يأتى بعدها ، كقولك : زيد قائم ثم تقول : إن زيداً قائم ، ففى قولك إن زيداً قائم من الإثبات لقيام زيد ماليس فى قولك زيد قائم .

الثانية : تكرير الضمير فى قوله « إنك أنت » ولو اقتصر على أحد الضميرين لما كان بهذه المكانة فى التقرير لغلبة موسى والإثبات لقهره .

الثالثة : لام التعريف فى قوله : « الأعلى » ولم يقل أعلى ولا عال ، لأنه لو قال ذلك لكان قد نكره ، وكان صالحا لكل واحد من جنسه ، كقولك رجل ، فإنه يصلح أن يقع على كل واحد من الرجال ، وإذا قلت « الرجل » فقد خصصته من بين الرجال بالتعريف ، وجعلته علما فيهم . وكذلك جاء قوله تعالى « إنك أنت الأعلى » أى دون غيرك .

الرابعة : لفظ أفعل الذى من شأنه التفضيل ، ولم يقل العالى .

الخامسة : إثبات الغلبة له من العلو ، لأن الغرض من قوله « الأعلى » أى الأغلب إلا أن فى الأعلى زيادة ، وهى الغلبة من عال .

السادسة : الاستئناف وهو قوله تعالى « لاتخف إنك أنت الأعلى » ولم يقل لأنك أنت الأعلى ، لأنه لم يجعل علة انتفاء الخوف عنه كونه عاليا ، وإنما نفى الخوف عنه أولا بقوله : « لاتخف » ثم استأنف الكلام فقال :

« إنك أنت الأعلى » فكان ذلك أبلغ فى إيقان موسى عليه السلام بالغلبة والاستعلاء ، وأثبت لذلك فى نفسه(١) .

• • •

وهكذا تأتى الجملة القرآنية بناء أحكمت لبناته ، لا تجد فيها كلمة تضيق بمكانها ، أو تنبو عن موضعها ، يجل وصفها ، وتعظم الإحاطة بنواحى جمالها ، وروعة سياقتها . وما أصدق قول الباقلانى : «فأما نهج القرآن ونظمه، وتأليفه ورصفه ، فإن العقول تتيه فى جهته ، وتحار فى بحره ، وتضل دون وصفه »(٢) .

وقول الرافعى : لاجرم كان القرآن فى نظمه وتركيبه على الأصل الذى أومأنا إليه ، نمطا واحداً فى القوة والإبداع ، ولا تقع منه على لفظ واحد يخل بطريقته ، مادامت تنعطف عليه جوانب هذا الكلام الإلهى ، ومادام فى موضعه من النظم والسياق .

وإنك لتحار إذا تأملت تركيب القرآن ونظم كلماته فى الوجوه المختلفة التى يتصرف فيها ، وتقعد بك العبارة إذا أنت حاولت أن تمضى فى وصفه، حتى لا ترى فى اللغة كلها أدل على غرضك، وأجمع لما فى نفسك ، وأبين لهذه الحقيقة غير كلمة الإعجاز(٣) .

---

(١) المثل السائر ص ٢٠، ٢١

(٢) إعجاز القرآن للباقلانى ص ١٨٣

(٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٢٧٧ ، ٢٨٠

من أسرار التشبيه القرآنى

القرآن الكريم غذاء الأرواح ، ومائدة الله للنفوس ، مختلف ألوانها، وكلها طيب الثمرات .

وتشبيهات القرآن أيا كان وجههـــا ، صور بيانية تتضح منها الحقائق الظاهرة كأنها أمور محسوسة مرئية(١) .

ولعل أول ما يسترعى النظر من خصائص التشبيه فى القرآن الكريم ، أنه يستمد عناصره من الطبيعة ، وذلك هو سر خلوده ، فهو باق مابقيت هذه الطبيعة،وسر عمومه للناس جميعاً ، يؤثر فيهم لأنهم يدركون عناصره ، ويرونها قريبة منهم وبين أيديهم ، فلا تجد فى القرآن تشبيها مصنوعاً يدرك جماله فرد دون آخر ، ويتأثر به إنسان دون إنسان .

انظر إليه : يجد فى السراب وهو ظاهرة طبيعية يراها الناس جميعاً ، فيغرهم مرآها ، ويعضون إلى السراب يظنونه ماء فيسعون إليه ، ويريدون أن يطفئوا حرارة ظمئهم ، ولكنهم لا يلبثون أن تملأ الخيبة قلوبهم حينما يصلون إليه بعد جهد جهيد ، فلا يجدون شيئاً مما كانوا يؤملون ، إنه يجد فى هذا السراب صورة قوية توضح أعمال الكفرة ، تظن مجدية نافعة وما هى بشئ(٢) .

يقول سبحانه : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن

---

(١) المعجزة الكبرى ص ٢٣٢

(٢) من بلاغة القرآن ص ١٩٦

ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب»(١) .

يقول أبو الحسن على بن عيسى الرمانى : فهذا بيان قد أخرج مالا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه، وقد اجتمعا فى بطلان المتوهم مع شدة الحاجة، وعظم الفاقة ، ولو قيل يحسبه الرائى ماء ، ثم يظهر على خلاف ماقدر لكان بليغاً ، وأبلغ منه لفظ القرآن ، لأن الظمآن أشـــد حرصاً عليه ، وتعلق قلب به ، ثم بعد هذه الخيبة حصل على الحساب الذى يصيره إلى عذاب الأبد فى النار — نعوذ بالله من هذه الحال — وتشبيه أعمال الكفار بالسراب من حسن التشبيه، فكيف إذا تضمن مع ذلك حسن النظم، وعذوبة اللفظ، وكثرة الفائدة، وصحة الدلالة(٢) ؟

كما يقول أبو هلال العسكرى : أخرج مالا يحس إلى ما يحس، والمعنى الذى يجمعهما بطلان المتوهم مع شدة الحاجة، وعظم الفاقة ، ولو قال يحسبه الرائى ماء لم يقع موقع قوله « الظمآن » لأن الظمآن أشد فاقة إليه ، وأعظم حرصاً عليه(٣) .

ويقول ابن أبى الإصبع : « فهذا بيان إخراج مالا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة ، وقد أصبحتا فى بطلان التوهم مع شدة الحاجة ، ولو قيل « يحسبه الرائى ماء » لكان بليغاً ، وأبلغ منه لفظ القرآن ، لأن الظمآن أشد حرصاً عليه ، وأكثر تعلق قلب به ، وتشبيه أعمال الكفار

---

(١) النور ٣٩

(٢) النكت فى إعجاز القرآن ص ٨٢ .

(٣) الصناعتين ص ٢٦٢

بالسراب من أحسن التشبيه وأبلغه ، فكيف وقد تضمن مع ذلك حسن النظم ، وعذوبة الألفاظ ، وصحة الدلالة ، وصدق التمثيل(١) ؟

هذا . وقد علق الشيخ محمد أبو زهرة على ماقاله الرمانى،فى بيان التشبيه فى الآية الكريمة بقوله : نرى أن قول القائل « يحسبه الرائى ماء » يفسد التشبيه ولا يفيد الحاجة ، لأن النص فيه ما يفيد الرغبة فى طلب الماء ، وشدة الحاجة إليه ، وذلك محقق فى المشبه ، إذ أن الذين كفروا بآيات ربهم فى وقت حاجتهم إلى عمل صالح،يظنون أن عملهم هذا منه وهم محتاجون إلى ما يتقدمون به إلى ربهم من عمل صالح ، فهم فى وقت حاجة إلى عمل صالح كالظمآن يطلب الماء(٢) .

ومن الواضح أن ماقاله أبو هلال لا يخرج عما قاله الرمانى .

كذلك فإن ماقاله ابن أبى الإصبع لايكاد يخرج بمنطوقه ومفهومه عما قاله الرمانى .

وأرى أن ما قاله الشيخ أبو زهرة أولى بالقبول .

ويصور القرآن الكريم اضطراب هؤلاء الكافرين وفزعهم عندما يجدون آمالهم فى أعمالهم قد انهارت ، فتظلم الدنيا امام أعينهم ، ويتزلزل كيانهم .

يقول سبحانه : « أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض ، إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور »(٣) .

---

(١) بديع القرآن ص ٥٨

(٢) المعجزة الكبرى ص ٢٢٢

(٣) النور ٤٠

إن التشبيهين — كما ترى — يعطيان صورتين من البيان تدلان على كمال الحيرة . وكمال الضلالة ، فالتشبيه الأول يعطى صورة عطشان يطلب الماء ، فيتوهمه فى سراب فيجرى وراءه عطشان صاديا ، حتى إذا أجهدته المشقة وبعد الشقة لا يجد شيئاً .

والثانى: يعطى صورة لشخص كانت عليه الظلمات توضع واحدة واحدة فوق واحدة ، وإذا كانت فيها فرجة يرجو منها الرؤية لا يصل إليه النور فالسحاب الذى به كأنه الغمة(١) .

ويجد القرآن الكريم فى الحجارة تنبو على الجس ولا تلين ، ويشعر عندها المرء بالنبو والجسوة ، يجد فيها المثال المدروس لقسوة القلوب ، وبعدها عن أن تلين لجلال الحق ، وقوة منطق الصدق .

يقول سبحانه :« ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة »(٢) أولا ترى أن القسوة عندما تخطر على الذهن ، يخطر إلى جوارها الحجارة الجاسية القاسية(٣)؟

— وكما ترى — فقد شبهت القلوب فى صلابتها وقسوتها وأنها لا ينفذ إليها شىء من الخير والحق بالحجارة ، والحجارة أوضح ما يصف الغفلة والجمود ، فالتشبيه يفيد أن هذه القلوب لا تثمر الخير أبداً ، لأنها ليست موضعاً صالحاً للإنبات .

انظر إلى سياق هذا الوصف الجليل « وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها ، والله مخرج ما كنتم تكتمون. فقلنا اضربوه ببعضها ، كذلك يحيى الله الموتى ،

---

(١) المعجزة الكبرى ص ٢٢٣

(٢) البقرة الآية ٧٤

(٣) من بلاغة القرآن ص ١٩٦

ويريكم آياته لعلكم تعقلون . ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة ، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وإن منها لما يهبط من خشية الله ، وما الله بغافل عما تعملون »(١) .

إن الآيات الكريمة تحكى قصة خارقة حدثت لبنى إسرائيل ،هى قصة القتيل الذى أمرهم الله فى شأنه أن يذبحوا بقرة ، وأن يضربوه ببعضها ليحيا ويخبرهم بقاتله، وقد كان كذلك ، وأراهم الله هـــذه الآية الناطقة بالحق المبين ، وكان بعد ذلك أن قست قلوبهم ، ولذلك نجد الآية تعطف قسوة القلوب بـ «ثم» وهى لا تدل هنا على التراخى الزمنى،وإنما تدل على استبعاد وقوع القسوة بعد جلاء الآية ، وهذا معنى دقيق ينهض به هذا الحرف فى كثير من الصياغات ، انظر إلى قول جعفر بن علبة الحارثى :

لا يكشف الغماء إلا ابن حرة
يرى غمرات الموت ثم يزورها
تقاسمهم أسيافنا شر قسمة
ففينا غواشيها وفيهم صدورها

لو قلت إن « ثم » هنا تفيد التباعد الزمنى ، لكان ذلك إفساداً للمعنى ، لأنه يعنى أنه يزور الغمرات،ويخوض الحروب بعد رؤيتها بزمن متراخ، وكأنه متردد فى ذلك. وهذه ليست أوصاف الشجاع الباسل، وإنما « ثم » هنا للاستبعاد ، أى الإشارة إلى أن خوض الغمرات وزيارتها بعد رؤية أهوالها أمر بعيد ، إلا على هذه القلوب الجسورة .

والإشارة فى قوله تعالى: « من بعد ذلك » تعنى من بعد هذا البرهان الذى

---

(١) البقرة : ٧٢ — ٧٤

كأنه شاخص يشار إليه ، والبعد فيها إشارة إلى أنه برهان يبعد أثره في القلوب الحية .

وقوله « أو أشد قسوة » إشارة إلى أنها ليست كالحجارة فى قسوتها وإنما هى أشد قسوة . وكان من الممكن أن يقول « أو أقسى » لأنه فعل يأتى منه التفضيل ولكن قصد إلى وصف القسوة بالشدة فهى ليست أقسى من الحجارة وإنما هى أشد قسوة .

ثم أشار إلى الفروق بين هذه القلوب والحجارة،فذكر أن من الحجارة ما تعمل فيه العوامل والأسباب فينفتق فتنفجر منه الأنهار لأنه يصير ممرأ لها ، ومنها ما يتحرك انقيادا للقوانين والسنن الكونية التى خلقها الله فى الأشياء،فترى الحجر ينحدر أو يسقط وهذا هو معنى الهبوط من خشية الله ، وقلوب اليهود ليست فيها واحدة من هذه المزايا التى فى الحجارة ، فهى فضلا عن أنها لا تكون منبعا للخير فى حياة الناس لن تكون مؤذنة بحركة الخير وانتشارها ، كما تكون الحجارة مؤذنة بمرور الماء ، والماء هو أصل الحياة فى مجالاتها الحسية والمعنوية .

كذلك لا تكون هذه القلوب متلائمة فى وجودها مع حركة الإنسانية العامة ، والتى تخضع لقوانين وسنن كونية عامة ، وإنما تكون فى سياق الوجود كالشىء الشاذ .

وفى هذا التشبيه وما جاء عليه من تدرج « كالحجارة أو أشد قسوة » إشارة إلى أن قلوب هذه الجماعة تتدرج صاعدة فى مدارج الغلظة الحاقدة على الإنسان ، وأن هذا هو الخط الذى تسير فيه(١) .

---

(١) التصوير البيانى ص ٢٧ ، ٢٨

ويجد القرآن الكريم فى هذا الذى يعالج سكرات الموت ، فتدور عينه حول عواده فى نظرات شاردة تائهة ، صـــورة تخطر بالذهن لدى رؤية هؤلاء الخائفين الفزعين ، من المضى إلى القتال ، وأخذهم بنصيب من أعباء الجهاد(١) .

يقول سبحانه : « قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا . أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت »(٢) .

إن قوله تعالى : « كالذى يغشى عليه من الموت » أضفى على هذا الدوران الدائب اللاهث وصف الضعف والتخاذل والفتور ، فليس هذا الدوران والدأب من العيون أمارة الحيوية والحيـــاة ، وإنما هو مظهر الموت والاستسلام .

وما أروع كلمة « يغشى » حيث غشت حركة عيونهم واحتطرابهم بغشاء المسجى الذى خذلته غشاه ، وهم بفراقه نبض القوة والحياة .

انظر إلى حسن هذا التشبيه حيث اختار نظر المغشى عليه من الموت صورة صادقة لهؤلاء الخوارين الذين يملأ قلوبهم الجمود والموت ، والذين وصفهم فى أكثر من موضع بمرض القلوب ، وإذا طال زمن مرض القلوب استشرى فيها داؤها ، ومات كل معنى من معانى الحياة التى لا تجد لها مقرا إلا فى صحاح القلوب(٣) .

---

(١) من بلاغة القرآن ص ١٩٧

(٢) الأحزاب ١٨، ١٩

(٣) من أسرار التعبير القرآنى ص ٨٠

ويجد القرآن الكريم في الزرع وقد نبت ضئيلا ضعيفا ، ثم لا يلبث ساقه أن يقوى ، بما ينبت حوله من البراعم فيشتد بها ساعده ويغلظ حتى يصبح بهجة الزارع وموضع إعجابه ، يجد في ذلك صورة شديدة المجاورة لصورة أصحاب النبي ﷺ ، فقد كانوا في بدء أمرهم قلة ضعافا ، ثم أخذوا في الكثرة والنماء ، حتى اشتد ساعدهم ، وقوى عضدهم ، وصاروا قوة تملأ قلب محمد ﷺ بهجة ، وقلب الكفار حقداً وغيظاً .

يقول سبحانه : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار »(١) .

فماذا ترى في هذا الزرع ؟ إنه لا يصبح هشيما مطلقا ، ولا تذروه الرياح أبداً ، إنه ليخيل إليك أنه ثابت هنا في مكانه ، قار في منبته ، خالد في موضعه ، ومدة العرض هنا دائمة ، والمنظر ثابت ، حتى تتحول عنه العين ، ولا يتحول هو عن العين ، وذلك هو الهدف المقصود .

إن الأجزاء الأولى من صورة الزرع — كما ترى — تم في سرعة متعاقبة « كزرع أخرج شطأه » فآزره » فاستغلظ » فاستوى على سوقه » فقد تم الغلظ والاستواء في مدى قصير ، ثم ثبت بعد ذلك وقر ، والإسراع الأول مقصود كالاستقرار الأخير ، في تصوير حال المسلمين يتم نموهم ، ثم يستقر وضعهم أبداً(٢) .

---

(١) الفتح ٢٩

(٢) من بلاغة القرآن ص ١٩٢ ، والتصوير الفني ص ١٤٢ .

ويجد فى أعجاز النخل المنقعر المقتلع من مغرسه ، وفى الهشيم الضعيف الذاوى صورة قريبة من صورة هؤلاء الصرعى ، قد أرسلت عليهم ريح صرصر تنزعهم عن أماكنهم ، فألقوا على الأرض مصرعين هنا وهناك .

يقول تعالى : « إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصراً فى يوم نحس مستمر . تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر »(١) .

يقول الرمانى : هذا بيان قد أخرج مالم تجر به عادة إلى ماقد جرت به . وقد اجتمعا فى قلع الريح لهما ، وإهلاكها إياهما ، وفى ذلك : الآية الدالة على عظيم القدرة والتخويف من تعجيل العقوبة(٢) .

ويقول الشيخ محمد أبو زهرة : إنما المقصود من التشبيه فيما نحسب تصوير عذاب الله تعالى ، فالله تعالى أرسل عليهم ريحا شديدة البرد ، فى يوم كله بأس وشدة ، وهو كالنحس عليهم ، طويل فى آلامه ، ومستمر فيها ، ولو كان فى الزمن قصيراً ، ثم يصور الله تعالى نزع المشركين من غرورهم ، واعتزازهم بمالهم ، ينزعون بعنف شديد لا يقوون فيه على الامتناع ولا الإصرار على البقاء ، كما تنزع مؤخرات وجذور نخل غاصت جذوره فى أعماق الأرض .

هذا بريق التشبيه المرعد الذى يصور ما ينزل بالمشركين الذين طغوا فى البلاد وأكثروا فيها الفساد(٣) .

ويقول تعالى : « فترى القوم فيها صرعى . كأنهم أعجاز نخل خاوية »(٤) .

---

(١) القمر ١٩ ، ٢٠
(٢) النكت فى إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل ص٨٣
(٣) المعجزة الكبرى ص٢٧٦ (٤) الحاقة ٧

يقول الرماني : وهـذا التشبيه قد أخرج مالا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم ، وقد اجتمعا في خلو الأجساد من الأرواح ، وفي ذلك الاحتقار لـكل شيء يؤول به الأمر إلى ذلك المـآل(١) .

كما يقول أبو هلال العسكري : الجامع بين الأمرين خلو الأجساد من الأرواح ، والفائدة الحث على احتقار ما يؤول به الحال(٢) .

ولا يخرج كلام أبي هلال عن مفهوم ومنطوق كلام الرماني .

هذا . وقد شاع في القرآن الـكريم تشبيه المحسوس بالمحسوس ، والقرآن حين يشبه محسوسا بمحسوس فإنما يهدف إلى رسم الصورة كما تحس بها النفس .

نجد ذلك في قوله سبحانه « وهي تجري بهم في موج كالجبال »(٣) .

ألا ترى الجبال تصور للعين هذه الأمواج الضخمة ، وتصور في الوقت نفسه ما كان يحس به ركاب هذه السفينة وهم يشاهدون هذه الأمواج من رهبة وجلال معاً ، كما يحس بهما من يقف أمام شامخ الجبال ؟

وقوله تعالى : « وتـكون الجبال كالعهن المنفوش »(٤) .

فالعهن المنفوش يصور أمامك منظر هـذه الجبال ، وقد صارت هشة لا تتماسك أجزاؤها ، ويحمل إلى نفسك معنى خفتها ولينها(٥) ،

فالجبال الشم الصلبة يوم القيامة تـكون خفيفة هشة كالصوف المنفوش،

---

(١) النكت في إعجاز القرآن ص ٨٤

(٢) الصناعتين ص ٢٦٤

(٣) هود ٤٢

(٤) القارعة ٥

(٥) من بلاغة القرآن ص ١٩٢

وقد شبهت الجبال بأضعف ما يكون وأرخاه ، لإظهار قدرته تعالى مبالغة فى الرد على من أنكر المعاد . وتكذيبا لمن حاك فى صدره استبعاد ذلك(١)

وقوله تعالى : « والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم »(٢).

فهذا القمر بهجة السماء وملك الليل ، لا يزال يتنقل فى منازله ، حتى يصبح بعد هذه الاستدارة المبهجة ، وهذا الضوء الساطع الغامر ، يبدد ظلمة الليل ويحيل وحشته أنساً ، يصبح بعد هذا كله دقيقا نحيلا محدودبا لا تكاد العين تلتفت إليه ، وكأنما هو فى السماء كوكب تائه ، لا أهمية له ، ولا عناية بأمره ، أو لا ترى فى كلمة العرجون ووصفها بالقديم ما يصور لك هيئة الهلال فى آخر الشهر ، ويحمل إلى نفسك ضآلة أمره معاً(٣) .

فقد شبه القمر فى نهاية رحلته بالعرجون القديم ،وهو تشبيه فنى جداً، لأن العرجون القديم لا يشارك القمر فى الشكل فحسب ، وإنما هناك معان أخرى ، منها أن العرجون القديم كأنه شىء تائه لا يلتفت إليه ، وكذلك القمر فى هذه المرحلة تراه ضالا فى السماء لا تتعلق به الأبصار ، ومنها أن كلا منهما كان موضع العناية ومتعلق الأنظار ، فالعرجون كان حامل الثمر والنفع ، والقمر كان مرسل النور والهداية ، وقوله « حتى عاد » يطوى قصة رحلة طويلة بدأها هلالا ثم مضى فى مسيرة طويلة حتى عاد ... وهذه النهاية متلائمة كل التلاؤم مع النهايات فى آيات السياق « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم »(٤) .

---

(١) البيان فى ضوء أساليب القرآن ص ٨٠

(٢) يس ٣٩

(٣) من بلاغة القرآن ص ١٩٢

(٤) يس ٣٧ — ٣٩

الآيات الثلاث تفوح بريح العدم ، فالنهار بحركته يسلخ من الليل فتبق الظلمة والجمود ، والشمس تجرى أولا ثم تقف عند مستقرها الأبدى ، والقمر يبدأ قصة مسيرته حتى ينتهى نوره ويعود كأنه موات(١) .

وقوله تعالى : « إنها ترمى بشرر كالقصر. كأنه جمالة صفر »(٢) .

فالقصر وهو البيت من الحجر ، أو الغليظ من الشجر ، والجمال الصفر ، توحى إلى النفس بالضخامة والرهبة معاً ، وصور لنفسك شررا فى مثل هذا الحجم من الضخامة يطير(٣) .

فشبه الشرر حين ينفصل من النار فى عظمه بالقصر ، وحين يأخذ فى الارتفاع والانبساط لانشقاقه وتشعبه عن أعداد غير محصورة بالجمالة الصفر فى اللون ، وسرعة الحركة والكثرة ، والانشقاق والتتابع ، إذ كان ذلك من شأن هذه الإبل عند اجتماعها وتزاحمها واضطراب أمرها ، وهذه كلها أمور حسية ، ومغزى التشبيه بالشرر هو التأكيد والتخويف من النار التى ترمى به تعظيما لشأنها ، وإرهابا للكافرين من سطوتها (٤) .

يقول الشيخ عبد القادر المغربى : يستعظم السامع مع هذا الوصف ، ويستغرب تشبيه الشرر بالقصر ، لأنه إنما يفهم من القصر حسب المشهور فى معناه ، البناء العظيم المشرف ، فيقول كيف تكون الشرارة الواحدة المتساقطة من ذلك الدخان كالقصر ؟ بل ربما ذهب خياله إلى قصور الملوك الباذخة

---

(١) التصوير البيانى ص ٢٦
(٢) المرسلات ٣٢ ، ٣٣
(٣) من بلاغة القرآن ص ١٩٢
(٤) القرآن والصورة البيانية ص ٤١

ذات الشرف والقمم والأبراج الشامخة فيستغرب الوصف ويستبعد الأمر، ولكن القصر إن كان يطلق فى لغة العرب على هذا الضرب من الأماكن الشامخة ، فإنه يطلق على كل بيت من حجر وإن كان صغيراً لاطئاً ، بل قال ابن عباس رضى الله عنهما : « إن تشبيه الشرر بالقصور وارد على ما هو المعتاد فى بلاد العرب من أجمل قصورهم قليلة الارتفاع جارية فى شكلها وهيئتها مجرى الخيام » .

فقد شبهت الشرارات بالجمالات فى عظمها ولونها، ثم فى كثرتها وانتشارها هنا وهنــــاك ، فى المرعى وفى تتابع بعضها إثر بعض ، وهى سائرة فى أقطارها ، وهكذا الشرارات تنبعث الشرارة إثر الشرارة أثناء تلظى نارها .

والصفر ذات اللون الأصفر المعروف ، أو المراد بالصفرة هنا السواد الضارب إلى صفرة ، فإن هذا اللون هو اللون الغالب فى ألوان الإبل عند العرب، والعرب يستعملون اللون الأصفر فيما كان لونه كالذهب والزعفران، وفيما كان لونه أسود كالغراب . ولا تعجب من قرن الجمال الصفر بالقصور الحمر فى الذكر ، ولا من الجمع بينهما فى التشبيه ، فإنك إذا نظرت إلى قرية من قرى العرب وقصورها، أى أبياتها الصغيرة اللاطئة المحمرة أو المصفرة بلون طينها أو ترابها أو حجارتها وهى منتشرة هنا وهناك فى جنبات السهل الأفيح ويتخللها أو يمرح فى كل جانب من جوانبها نياق أو جمال مصفرة اللون أو مسودته ترعى تارة هنا وطوراً هناك ، إذا وقع نظرك على ذلك تحت من بعد فى آن واحد أجساما صغيرة حمراء أو صفراء أو سوداء تتراءى لك من خلال الكلأ والعشب الأخضر ، هذه البيوت هنا ، وهذه الجمال هناك فى مشهد واحد وإذ ذاك لا تعود تستبعد تشبيه هذه الشرارات الجهنمية بتلك الأبيات والجمالات ولا تستغرب قرنهما معا فى الذكر بل تستحلى ذلك وتعجب به(١) .

---

(١) خطوات التفسير البيانى للقرآن الكريم ص ٣٠٨

ومن ثم يتبين أن التشبيهين لا يغربان عن ذهـــن العربي ، فإن التشبيه بالقصر ، وهو البيت من حجر ، أو هو الغليظ من الشجر مألوف للعربي ، يشاهده ويراه ، وكذلك الجمال الصفر ، إنها آلته التي يتحرك بها ووسيلته إلى قطع الصحراء ، فإذا وقع عليها التشبيه أي تشبيه شرر جهنم الذي يرتفع عاليا كالقصر فهذا تصوير لارتفاع الشرر ، وهو منظر حسي رهيب يلقى بتهاويله في قلب العربي ويثير مخيلته ويحرك وجدانه .

وإذا أراد القرآن الكريم أن يعطي تصوراً عن اللون ، لون ذلك الشرر المرتفع المتطاير الذي يتدافع متصاعداً على شكل موجات صفراء ، تشبه جماعات من جمال صفر تمضي في الصحراء جماعة تلو جماعة .

أرأيت إلى الشكل واللون يصورهما القرآن خير تصوير مستعملا أداة التشبيه عامدا إلى ما يألفه العربي ليثير خياله ووجدانه(١) ؟

وقوله تعالى: «كأنهن الياقوت والمرجان(٢)» . وقوله سبحانه «كأنهن بيض مكنون(٣)» ، وقوله جل شأنه : «وحور عين . كأمثال اللؤلؤ المكنون(٤)» .

تأمل جمال التشبيه : فليس في الياقوت والمرجان واللؤلؤ المكنون لون فحسب ، وإنما هو لون صاف حي فيه نقاء وهدوء ، وهي أحجار كريمة تصان ويحرص عليها ، وللنساء نصيبهن من الصيانة والحرص ، وهن يتخذن من تلك الحجارة زينتهن ، فقربت بذلك الصلة واشتد الارتباط ، أما الصلة التي تربطهن بالبيض المكنون فضلا عن نقاء اللون ، فهي هذا الرفق والحذر الذي يجب أن يعامل به كلاهما ، أولا ترى في هـذا السكن أيضا صلة تجمع بينهما ؟ وهكذا لا تجد الحس وحده هو الرابط والجامع ، ولكن للنفس نصيب أي نصيب .

---

(١) واقعية المنهج القرآني ص ٤٤٠ — (٢) الرحمن ٥٨

(٣) الصافات ٤٩ — (٤) الواقعة ٢٢، ٢٣

وكثر فى القرآن الكريم إيضاح الأمور المعنوية بالصور المرئية المحسوسة ، تلقى عليها أشعة تغمرها ، فتصبح شديدة الأثر، وهاهو ذا يمثل وهن ما اعتمد عليه المشركون من عبادتهم غير الله، وهناً لن يفيدهم فائدة ما ، فهم يعبدون ويبذلون جهداً يظنونه مثمرا ، وهو لايجدى ، فوجد فى العنكبوت ذلك الحيوان الذى يتعب نفسه فى البناء ويبذل جهده فى التنظيم وهو لا يبنى سوى أوهن البيوت وأضعفها ، فقرن تلك الصورة المحسوسة إلى الأمر المعنوى! فزادته وضوحا وتأثيراً(١) . قال تعالى : « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون(٢) ».

يقوم الرمانى: فهذا تشبيه قد أخرج مالايعلم بالبديهة إلى مايعلم البديهة ، وقد اجتمعا فى ضعف المعتمد ووهاء المستند ، وفى ذلك التحذير من حمل النفس على الغرور بالعمل على غير يقين مع الشعور بما فيه التوهين(٣) .

كما يقول أبو هلال العسكرى : فالجامع بين الأمرين ضعف المعتمد ، والفائدة التحذير من حمل النفس على التغرير بالعمل على غير أس(٤) .

ويريد القرآن أن يحدثنا عن أعمال الكفرة ، وأنها لاغناء فيها ، ولا ثمرة ترجى منها، فهى كعدمها ، فوجد فى الرماد الدقيق لاتبقى عليه الريح العاصفة صورة تبين ذلك المعنى أتم بيان وأوفاه(٥) .

يقول سبحانه «مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح

---

(١) من بلاغة القرآن ص ١٩٣
(٢) العنكبوت ٤١
(٣) النكت فى إعجاز القرآن ص٨٤
(٤) الصناعتين ص ٢٦٤
(٥) من بلاغة القرآن ص١٩٤

في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد »(١).

يقول الرماني : فهذا بيان قد أخرج مالا تقع عليه الحياسة إلى ماتقع عليه ، فقد اجتمع المشبه والمشبه به في الهلاك وعدم الانتفاع والعجز عن الاستدراك لما فات ، وفي ذلك الحسرة العظيمة والموعظة البليغة(٢)

إن الكافرين كانوا يحسبون أن أعمالهم لها أثر في الوجود في زعمهم، ويتوهمون وقوع ذلك وأنهم قدموا لأنفسهم شيئاً ، ولكنهم يفاجأون بريح شديدة في يوم عاصف ، تبدد ما كانوا عليه من أحلام . كانوا يتوهمون أن مالهم في الدنيا ينفعهم، فلما جاء يوم القيامة بددت أحلامهم فتقدموا عاطلين في حلية العمل الطيب وكان ذلك هو الضلال البعيد،لأنهم زعموا باطلا ، ثم رأوا الحقيقة عياناً(٣) .

وواضح أن الصورة تزيد حركة وحياة بحركة الريح في يوم عاصف تذرو الرماد ، وتذهب به بدداً إلى حيث لا يتجمع أبدا (٤) .

واقرأ قوله تعالى: « له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال »(٥) .

الآية الكريمة تتحدث في شأن من يعبدون الأوثان ، وأنهم إذا دعوا آلهتهم لا يستجيبون لهم بشيء ولا يرجع إليهم هذا الدعاء بفائدة ،ولا يعود عليهم بطائل ، ولا يلحقهم من ورائه نفع ، وقد أراد القرآن أن يقرر هذه الحال ويثبتها في الأذهان فشبه هؤلاء الوثنيين بمن يبسط كفيه إلى الماء ليشرب فلا يصل الماء إلى فمه ، وذلك لأنه يخرج من بين فروج أصابعه مادامت كفاه مبسوطتين .

---

(١) إبراهيم ١٨ (٢) النكت في إعجاز القرآن ص٨٧

(٣) المعجزة الكبرى ص ٢٢٤ (٤) التصوير الفني ص٣٦ (٥) الرعد ١٤

و — كما ترى — وجه الشبه : الرجوع بالخيبة والخسران بعد الأمل والرجاء .

يقول الرمانى : فهذا بيان قد أخرج ما لاتقع عليه الحاسة إلى ماتقع عليه . وقد اجتمعا فى الحاجة إلى نيل المنفعة والحسرة بما يفوت من درك الطلبة ، وفى ذلك الزجر عن الدعاء إلا لله عز وجل الذى يملك النفع والضر ، ولا يضيع عنده مثقال الذر(١)

كما يقول أبو هلال : والمعنى الذى يجمع بينهما الحاجة إلى نيل المنفعة والحسرة لما يفوت من درك الحاجة(٢)

وواضح أن ماقاله أبو هلال لايخرج عما قاله الرمانى .

ويقول ابن قتيبة : أراد : كباسط كفيه إلى الماء ليقبض عليه فيبلغه فاه

قال « ضابىء بن الحارث البرجمى » :

فإنى وإياكم وشوقا إليكم
كقابض ماء لم تسقه أنامله(٣)

والعرب تقول لمن تعاطى مالا يجد منه شيئا : هو كالقابض على الماء(٤)

هذا . وقد جاء فى القرآن ضرب آخر من التشبيه اعتمد فى إبراز

---

(١) النكت فى إعجاز القرآن ص ٨٣

(٢) الصناعتين ص ٢٦٣

(٣) يقول : ليس فى يدى شىء من ذلك ، كما أنه ليس فى يد القابض على الماء شىء .

(٤) تأويل مشكل القرآن ص ٢٢٤

الحقيقة المراد إبرازها على ماترسخ فى النفوس من صور لأشياء ليست حقائقها مرئية فى حياة الناس كقوله تعالى فى وصف طلع شجرة الزقوم : «طلعها كأنه رؤوس الشياطين»(١)

فإنه اعتمد فى بيان حالتها على ماتخيلته النفوس للشيطان من رأس قبيحة جداً وبالغة فى النفرة والكراهية ، والشجرة شجرة غريبة لم توجد على أساس القانون الطبيعى لوجود الشجر من تربة فيها حياة وماء ، وإنما هى شجرة تخرج فى أصل الجحيم هى شجرة شاذة وغريبة فناسبتها هذه الرؤوس الغريبة رؤوس الشياطين ، والجمع فى كلمة رؤوس يمنح الصورة قدرا من الغزارة ، فلبس عليها رأس شيطان ، وإنما عليها رؤوس جميع الشياطين المنبثين فى الثقلين جادين فى إفساد الوجود ، يغرسون الشر والأذى ويقتلعون الخير النافع .

طلع شجرة الضر النامية فى قعر جهنم تثمر طعاما لهؤلاء الذين يكونون جبهة الشر فى الأرض أو حزب الشيطان ، هذا التشبيه فيه قدر من التهكم بأولياء الشيطان الذين يطعمون فى جهنم من شجرة طلعها كرأس وليهم(٢)

والبلاغيون يطلقون على هذا النوع من التشبيه «التشبيه الوهمى» وهو ماليس مدركا بشىء من الحواس الخمس الظاهرة ، مع أنه لو أدرك لم يدرك إلا بها(٣)

يقول ابن القيم : إن هذه الأشياء المعقولة لتقررها فى الذهن ، وتخيلها فى العقل ، صارت بمنزلة المحسوسات ، فلما نزلت منزلة المحسوسات صح

---

(١) الصافات ٦٥
(٢) التصوير البيانى ص ٩٤
(٣) الإيضاح ج ٣ ص ١٧

التشبيه وقوى ، وصار المعقول للمبالغة أنهض فى النفس وأقوى من المحسوس. فصار لذلك أصلا يشبه به .

ومن هذا قوله تعالى : « طلعها كأنه رؤوس الشياطين » ولهذا قال امرؤ القيس يشبه نصول الرماح :

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى
ومسنونة زرق كأنياب أغوال

فإنهم وإن كانوا لم يشاهدوا الغول وأنيابها لكنهم لما اعتقدوا فيها أى فى أنيابها غاية الحدة حسن التشبيه(١)

كما يقول الزمخشرى(٢) : شبه برؤوس الشياطين دلالة على تناهيه فى الكراهية وقبح المنظر ، لأن الشيطان مكروه مستقبح فى طباع الناس ، لاعتقادهم أنه شر محض لا يخلطه خير فيقولون فى القبيح الصورة كأنه وجه شيطان ، كأنه رأس شيطان ، وإذا صوره المصورون جاءوا بصورته على أقبح مايقدر وأهوله .

كما أنهم اعتقدوا فى الملك أنه خير محض لا شر فيه ، فشبهوا به الصورة الحسنة . قال الله تعالى : « ماهذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم »(٣)

ويؤكد الزركشى بلاغة هذا التشبيه وروعته وسر جماله فيقول : قد يشبه ماتقع عليه الحاسة بما لا تقع ، اعتماداً على معرفة النقيض والضد ، فإن إدراكهما أبلغ من إدراك الحاسة ، كقوله تعالى: «كأنه رؤوس الشياطين»

---

(١) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن ص ٥٩
(٢) الكشاف جـ ١/ص ٢٩٥
(٣) يوسف ٣١

فشبه بما لا نشك أنه منكر قبيح لما حصل فى نفوس الناس من بشاعة صور الشياطين وإن لم ترها عيانا(١)

هذا ومن أسرار التشبيه القرآنى دقته ، فهو يصف ويقيد حتى تصبح الصورة دقيقة واضحة مؤثرة .

اقرأ قوله تعالى « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا »(٢)

فقد يتراءى أنه يكفى فى التشبيه أن يقال : مثلهم كمثل الحمار ، ولكن الصورة تزداد قوة والتصاقا والتحاما حين يقرن بين هؤلاء وقد حملوا التوراة ، فلم ينتفعوا بما فيها ، وبين الحمار يحمل أسفار العلم ولا يدرى ما ضمته شيئا(٣)

— وكما ترى — فى الآية الكريمة تشبيه حال اليهود فى حفظهم التوراة وإعراضهم عما فيها بحال الحمار يحمل كتب العلم النافعة ولا يستفيد منها شيئا ، ووجه الشبه : هيئة الحرمان من الانتفاع بأبلغ نافع مع معاناة الكدر والتعب فى استصحابه .

يقول الرمانى : وهذا تشبيه قد أخرج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة وقد اجتمعا فى الجهل بما حملا ، وفى ذلك العيب لطريقة من ضيع العلم بالاتكال على حفظ الرواية من غير دراية(٤)

---

(١) البرهان فى علوم القرآن جـ ٣ ص ٤٢١
(٢) الجمعة ٥
(٣) من بلاغة القرآن ص ١٩٩
(٤) النكت فى إعجاز القرآن ص ٨٤

كما يقول أبو هلال العسكرى : الجامع بين الأمرين الجهل بالمحمول ، والفائدة فيه الترغيب فى تحفظ العلوم ، وترك الاتكال على الرواية دون الدراية(١)

كما يقول الإمام عبد القاهر : الشبه منتزع من أحوال الحمار ، وهو أنه يحمل الأسفار التى هى أوعية العلوم ، ومستودع ثمر العقول ، ثم لا يحس بما فيها ولا يشعر بمضمونها ولا يفرق بينها وبين سائر الأحمال التى ليست من العلم فى شىء ، ولا من الدلالة عليه بسبيل ، فليس له مما يحمل حظ سوى أنه يثقل عليه ، ويكد جنبيه ، فهو كما ترى مقتضى أمور مجموعة ، ونتيجة لأشياء ألفت وقرن بعضها إلى بعض .

بيان ذلك : أنه احتيج إلى أن يراعى من الحمار فعل مخصوص وهو الحمل وأن يكون المحمول شيئا مخصوصا وهو الأسفار التى فيها أمارات تدل على العلوم ، وأن يثلث ذلك بجهل الحمار ما فيها حتى يحصل الشبه المقصود ، ثم إنه لا يحصل من كل واحد من هذه الأمور على الانفراد ، ولا يتصور أن يقال إنه تشبيه بعد تشبيه من غير أن يقف الأول على الثانى ، ويدخل الثانى فى الأول ، لأن الشبه لا يتعلق بالحمل حتى يكون من الحمار ، ثم لا يتعلق أيضا بحمل الحمار حتى يكون المحمول الأسفار ، ثم لا يتعلق بهذا كله حتى يقترن به جهل الحمار بالأسفار المحمولة على ظهره .

فما لم تجعله كالخيط الممدود ولم يمزج حتى يكون القياس قياس أشياء يبالغ فى مزاجها حتى تتحد وتخرج عن أن تعرف صورة كل واحد منها على انفراد بل تبطل صور المفردة التى كانت قبل المزاج ، وتحدث صورة خاصة غير الواتى

---

(١) الصناعتين ص ٢٦٤

عهدت وبحصل مذاقها ، حتى لو فرضت حصولها لك فى تلك الأشياء لم يتم المقصود(١) ، ولم تحصل النتيجة المطلوبة وهى الذم بالعقاء فى شىء يتعلق به غرض جليل وفائدة شريفة ، مع حرمان ذلك الغرض وعدم الوصول إلى تلك الفائدة ، واستصحاب مايتضمن المنافع العظيمة والنعم الخطيرة من غير أن يكون ذلك الاستصحاب سببا إلى نيل شىء من تلك المنافع والنعم(٢) .

واقرأ قوله تعالى : « يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر»(٣)

فقد شبه الناس حين خروجهم من جوف الأرض وانتشارهم على ظهرها بالجراد المنتشر فى الكثرة ، والتدافع وجولان بعضهم فى بعض ، الكل يتحرك ويموج من غير تحديد ومن غير تعقل(٤)

وكما ترى فقد وصف المشبه به « الجراد » بالمنتشر حتى يكون دقيقا فى تصوير هذه الجموع الحاشدة ، خارجة من أجداثها منتشرة فى كل مكان تملأ الأفق ، ولا يتم هذا التصوير إلا بهذا الوصف الكاشف (٥)

ويصف القرآن الكريم نهاية ثمود لما عقروا الناقة التى كانت لهم آية

---

(١) جواب قوله : فإلم تجعله كالخيط .
(٢) أسرار البلاغة تحقيق أحمد مصطفى المراغى ص ١١٤
(٣) القمر ٧
(٤) التصوير البيانى ص ٢٩
(٥) من بلاغة القرآن ص ٢٠٠

يقول سبحانه : « إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر »(١)

والهشيم : الشجر اليابس . والمحتظر : الذى يعمل الحظيرة ، وكان يمكن أن تؤدى العبارة معنى فنائهم وتحطيمهم لو قال : فكانوا كالهشيم ، ولكنه أراد أن يؤدى معنى آخر بهذا القيد وهو الازدراء ، وأنهم لا كرامة ولا آدمية لهم ، وإنما هم كهذا الهشيم الموطوء بالدواب تبول وتروث عليه وفيه من الإهانة وضياع الحرمات ما ترى(٢)

واقرأ قوله تعالى : « كأنهم خشب مسندة »(٣)

إنك تفهم من خلال النظم أنهم المنافقون ، لأن الكلمات ترسم أشباحهم أجساما بضة وكلمات معسولة ، تستلفت الأبصار والأسماع ، ولكنها ميتة ، وقد تعجب لهذا التعبير ، كيف تكون الأجسام البضة ، ذات الكلمة الحلوة الرشيقة ميتة ؟ .

لأنهم ظاهر فقط بلا معنى ، شكل بلا روح ، والإيمان على ألسنتهم كلمات يلعبون بها ويموهون ، وفى قلوبهم غش وخداع ، وحقد وضغينة « كأنهم خشب مسندة » .

يقول الزمخشرى : « ولأن الخشب إذا انتفع به كان فى سقف أو جدار أو غيرهما من مظان الانتفاع ، ومادام متروكا فارغا غير منتفع به أسند

---

(١) القمر ٣١
(٢) التصوير البيانى ص ٣٠
(٣) المنافقون ٤

إلى الحائط فشبهوا به في عدم الانتفاع (١).

كما يقول الدكتور أحمد بدوي : وصفت الخشب بأنها مسندة ، فهي ليست خشبا قائمة في أشجارها ، لما قد يكون لها من جمال في ذلك الوضع ، وليست موضوعة في جدار لأنها حينئذ تؤدي عملا ، ولعمر بعدى فائدتها ، وليست متخذا منها ابواب ونوافذ لما فيها من الحسن والزخرف والجمال . ولكنها خشب مسندة قد خلت من الجمال ، وتوحي بالغفلة والاستسلام (٢).

ويبين الزركشي السر البلاغي في وصف المشبه به فيقول : شبههم بالخشب لأنه لاروح فيها ، وبالمسندة لأنه لا انتفاع بالخشب في حال تسنيده (٣)

ومن أسرار التشبيه القرآني : اختيار ألفاظه الدقيقة المصورة الموحية ...

اقرأ قوله تعالى : إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص (٤) ،

فقد آثر القرآن كلمة « بنيان » لما تثيره في النفس معنى الالتحام والاتصال والاجتماع القوى ، وغير ذلك من معان ترتبط بما ذكرناه مما لا يثار في النفس عند كلمة حائط أو جدار مثلا .

---

(١) المعاني الثانية في الأسلوب القرآني ص ٤٢٩ ، والكشاف للزمخشري جـ ٣ ص ٢٣٤

(٢) من بلاغة القرآن ص ٢٠٠

(٣) البرهان في علوم القرآن جـ ٢ ص ٤٢٦

(٤) الصف ٤

وقوله تعالى « وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام »(١)

فإن سر إيثار كلمة الأعلام جمع علم بمعنى جبل ، أن الكلمة المشتركة بين عدة معان تتداعى هذه المعانى عند ذكر الكلمة .

ولما كان من معانى العلم « الراية » التى تستخدم للزينة والتجميل ، كان ذكر الأعلام محضرا إلى النفس هذا المعنى إلى جانب إحضارها صورة الجبال . وكان إثارة هذا الخاطر ملحوظا عند ذكر السفن الجارية فوق البحر تزين سطحه ، فكأنما أريد الإشارة إلى جلالها وجمالها معا . وفى كلمة « الأعلام » وفاء بتأدية هذا المعنى أدق وفاء(٢)

يقول الرمانى : فهذا تشبيه قد أخرج مالا قوة له فى الصفة إلى ماله قوة فيها ، وقد اجتمعا فى العظم إلا أن الجبال أعظم ، وفى ذلك العبرة من جهة القدرة فيما سخر من الفلك الجارية مع عظمها ،وما فى ذلك من الانتفاع بها ، وقطع الأقطار البعيدة فيها(٣)

ويعلق الشيخ محمد أبو زهرة على كلام الرمانى فيقول :

وإن ذلك الكلام حق فإنه إذا كان الجمع بين المشبه والمشبه به القوة ، فالجبل أقوى ، وإذا كان الظهور . فالجبل أظهر .

ولكن يلاحظ أن المقصود من التشبيه لايعنى به الرمانى كثيرا بل تكون عنايته بالأوصاف الظاهرة ، أو المقاصد القريبة ، وأن المقصود فى

---

(١) الرحمن ٢٤
(٢) من بلاغة القرآن ص٢٠١
(٣) النكت فى إعجاز القرآن ص ٨٥

هذا السياق هو بيان سر الله تعالى فى خلقه وتسخيره للإنسان ، فإنه إذا كانت الجبال والأوهاد وجدها الإنسان كذلك ، وهى رواسى الأرض ، وبها ثباتها ، فإن الجوارى وهى السفن التى تقارب فى علوها وفى قوتها وأثقالها الجبال تجرى على الماء ، وهو يحملها مع أنه سائل لا صلابة فيه ، وتجرى فيه وتنقلهم إلى بلد لم يكونوا واصلين إليه بغيرها ، فقدرة الله تعالى فيها أظهر ، لأنها منشأة ترى نشأتها ، وهى تجرى بأمر الله تعالى ، ولا يجرونها(١)

وأرى أن ماقاله الشيخ أبو زهرة جدير بالقبول .

ويشيد ابن أبى الأصبع بهذا التشبيه بقوله :

« وهذا بيان إخراج مالا قوة له فى الصفة ، إلى ماله قوة فى الصفة ، وقد اجتمعا فى العظم ، إلا أن الجبال أعظم ، ولهذا جاءت مشبها بها ، وفى ذلك العبرة من جهة قدرة من سخر الفلك الجارية على الماء مع عظمها ولطفه ، ومافى ذلك من انتفاع الخلق بحمل الأثقال وقطعها الأقطار البعيدة فى المسافة القريبة ، ومايلازم ذلك من تسخير الرياح للإنسان(٢)

كما يقول ابن الأثير :

وهذا تشبيه كبير بما هو أكبر منه ، لأن خلق السفن البحرية كبير ، وخلق الجبال أكبر منه(٣)

---

(١) المعجزة الكبرى ص ٢٧٩
(٢) بديع القرآن ص ٥٩
(٣) المثل السائر ـ ١ ص ٣٩٩

واقرأ قوله تعالى : « وجعلنا الليل لباساً »(١) .

فقد شبه الليل باللباس ، وذلك أنه يستر الناس بعضهم عن بعضهم لمن أراد هرباً من عدو أو بياتاً لعدو ، أو إخفاء ما لا يحب الاطلاع عليه من أمره ، وهذا من التشبيهات التي لم يأت بها إلا القرآن الكريم ، فإن تشبيه الليل باللباس مما اختص به دون غيره من الكلام المنظوم والمنثور(٢) .

ومن ميزات التشبيه القرآني الذي يملك القلوب ، أن المشبه قد يكون واحداً ، ويشبه بأمرين أو أكثر لما لصلة تربط بين هذا الأمر وما يشبهه تثبيتاً للفكرة في النفس ، أو لما لها من عدة زوايا .

اقرأ قوله تعالى في وصف حال المنافقين « مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون ، صم بكم عمي فهم لا يرجعون . أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين »(٣) .

تأمل هذا التشبيه الرائع ، فقد صور القرآن الكريم حيرة المنافقين ، واضطراب أمرهم ، وهذه الحيرة يشتد تصورها لدى النفس ، إذا هي استحضرت صورة هذا الساري وقد أوقد ناراً تضيء طريقه ، فعرف أين يمشي ، ثم لم يلبث أن ذهب النور وشمل المكان ظلام دامس ، لا يدري السائر فيه أين يضع قدمه ، ولا كيف يأخذ سبيله ، فهو يتخبط ولا يمشي خطوة حتى يرتد خطوات .

---

(١) النبأ ١٠

(٢) المثل السائر جـ ١ ص ٣٩٩

(٣) البقرة ١٧ — ١٩

أو إذا استحضرت صورة هذا السائر تحت صيب من المطر ، قد صحبه ظلمات ورعد وبرق ، أما الرعد فشأنه فى الشدة إلى درجة أنه يود السامع بوضع أصابعه إذا استطاع فى أذنه ، وأما البرق فيكاد يخطف البصر ، وأما الظلمات المتراكمة فتحول بين السائر وبين الاهتداء إلى سواء السبيل(١) .

و — كما ترى — فقد شبه حال المنافقين وقد أبصروا أمامهم بأعينهم نور الإيمان ، وشهدوا بأنفسهم دلائله وشواهده ، وهم مع ذلك مصرون على عقيدتهم الباطلة ، بحال قوم أوقدوا حولهم ناراً تبينوا على ضوئها ما أحاط بهم من معالم الأشياء ، ثم ما لبثت أن أطفئت ، فوقعوا يتخبطون فى ظلام دامس وليل حالك ، أو بحال قوم دهمهم مطر غزير فى ليلة ليلاء ، فيها رعد وبرق وصواعق ، حتى امتلكهم الخوف ، فوضعوا أصابعهم فى آذانهم حذر الموت .

ووجه الشبه : هو وجود هداية قصيرة الأمد تلاها ظلام الحيرة والندم .

يقول ابن أبى الأصبع : وهذا من أصدق التشبيه وأقربه(٢) .

كما يقول ابن الأثير : إن مثل هؤلاء المنافقين كمثل رجل أوقد ناراً فى ليلة مظلمة بمفازة فاستضاء بها ما حوله ، فاتقى ما يخاف وأمن ، فبينما هو كذلك إذ أطفئت ناره ، فبقى مظلما خائفا . وكذلك المنافق إذا أظهر كلمة الإيمان استنار بها واعتز بعزها ، وأمن على نفسه وماله وولده ، فإذا مات عاد إلى الخوف ، وبقى فى العذاب والنقمة(٣) .

---

(١) من بلاغة القرآن ص ٢٠٢ — (٢) بديع القرآن ص ٦١
(٣) المثل السائر ج ١ ص ٤٠٤

إنك لو أنعمت النظر فى هذا التشبيه الرائع ، لوجدت الدرر الغالية ، واللآلىء الثمينة التى تجل عن الوصف . تجدها فى صورة التشبيه ، كما تجدها فى أجزائه وكل منهما له دلالاته وموحياته .

هذا . وإلى جانب ما ذكرنا من خصائص التشبيه القرآنى ، وما فيه من روعة وجمال وحسن وبهاء ، فإن التشبيهات القرآنية تهدف إلى التأثير فى العاطفة بصور أخاذة تأسر الألباب ، فهى ترغب أو ترهب .

اقرأ قوله تعالى : ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله ، وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين ، فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير(١) .

فقد شبهت النفقة ابتغاء وجه الله بجنة بربوة عالية ، فهى نقية التربة إذا أصابها وابل تشربت منه ما تزداد به خصوبة ، وتركت الباقى ينحدر إلى القيعان فإذا لم يصبها وابل لا تظمأ لأنها ترتضع من ثدى آخر ، هو قطر الندى بطهره ونقائه فهى خصبة فى كل حال ، نامية أبداً ، وهذا هو الجامع بين الطرفين(٢) .

يقول الزمخشرى : مثل نفقة هؤلاء فى زكاتها عند الله « كمثل جنة » وهى البستان « بربوة » بمكان مرتفع ، وخصها لأن الشجر فيها أزكى ، وأحسن ثمرا ، « أصابها وابل » مطر عظيم القطر ، « فآتت أكلها » ثمرتها « ضعفين » مثلى ما كانت تثمر بسبب الوابل « فإن لم يصبها وابل فطل » فطر صغير القطر يكفيها لكرم منبتها .

---

(١) البقرة الآية ٢٦٥

(٢) التصوير البيانى ص ١٠٠

أو مثل حالهم عند الله بالجنة على الربوة ، ونفقتهم الكثيرة والقليلة بالوابل والطل ، ومع أن كل واحد من المطرين يضعف أكل الجنة ، فكذلك نفقتهم كثيرة كانت أو قليلة بعد أن يطلب بها وجه الله ، ويبذل فيها الوسع زاكية عند الله زائدة فى زلفاهم ، وحسن حالهم عنده(١) .

واقرأ قوله تعالى : «واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا »(٢) .

فقد شبه القرآن من آتاه الله علما نافعا ، فكفر بما علم ، ومال إلى حطام الدنيا ومباهجها الفانية ، واتبع هواه ، بالكلب فى أخس صفاته وأحقرها وأذلها سواء أقبلت عليه ، أم أعرضت عنه .

ووجه الشبه : وجوه صفات قبيحة ، وطبائع راسخة ذميمة ، لا يهذبها النصح والترغيب ، ولا يؤثر فيها التهديد والوعيد .

يقول الرمانى : فهذا بيان قد أخرج مالا تقع عليه الحاسة ، إلى ما تقع عليه . وقد اجتمعا فى ترك الطاعة على وجه من وجوه التدبير وفى التخسيس ، ، فالكلب لا يطيعك فى ترك اللهث حملت عليه أو تركته ، وكذلك الكافر لا يطيع بالإيمان على رفق ولا على عنف وهذا يدل على حكمة الله سبحانه فى أنه لا يمنع اللطف(٣) .

كما يقول أبو هلال العسكرى : أخرج مالا يقع عليه الحاسة إلى ما يقع

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٣٩٥
(٢) الأعراف ١٧٥ ، ١٧٦
(٣) النكت فى إعجاز القرآن ص ٨٢

عليه من لهث الكلب ، والمعنى أن الكلب لا يطيعك فى ترك اللهث على حال وكذلك الكافر ، لا يجيبك إلى الإيمان فى رفق ولا عنف[1] .

وواضح أن ما قاله أبو هلال لا يخرج عما قاله الرمانى .

أما الجاحظ فقد أفاض فى بيانه الساحر ، ودفع بأسلوبه الرائع ، وفكره الثاقب ، وحجته الدامغة ، وبراهينه الساطعة، شبهة المعترضين على التشبيه فى الآية الكريمة فيقول مدافعا ومبينا سر الجمال فى هذا التشبيه :

وقد اعترض معترضون فى قوله عز وجل « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا » .

فزعموا أن هذا المثل لا يجوز أن يضرب لهذا المذكور فى صدر الكلام ، لأنه قال : « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها » فما يشبه حال من أعطى شيئاً فلم يقبله ، ولم يذكر غير ذلك ، بالكلب الذى إن حملت عليه نبح وولى ذاهبا ، وإن تركته شد عليك ونبح ، مع أن قوله « يلهث » لم يقع موقعه ، وإنما يلهث الكلب من عطش شديد، وحر شديد، ومن تعب ، وأما النباح والصياح فمن شىء آخر .

ويدحض الجاحظ هذا الزعم ، ويدفع تلك الأباطيل بما أوتى من علم غزير ومنطق قويم .

فليس ببعيد أن يشبه الذى أوتى الآيات والأعاجيب والبرهانات

---

(١) الصناعتين ص ٢٦٢

والمكرامات في بدء حرصه عليها ، وطلبه لها ، بالكلب في حرصه وطلبه ، فإن الكلب يعطى الجد والجهد من نفسه في كل حالة من الحالات ، وشبه رفضه وقذفه لها من يديه ورده لها بعد الحرص عليها ، وفرط الرغبة فيها ، بالكلب إذا رجع نبح بعد اطرادك له .

وواجب أن يكون رفض قبول الأشياء الخطيرة النفيسة في وزن طلبها والحرص عليها ، والكلب إذا أتعب نفسه في شدة النباح مقبلا إليك ، ومدبرا عنك ، لهث واعتراه ما يعتريه عند التعب والعطش ، وعلى أننا ما نرى بأبصارنا إلى كلابنا وهي رابضة وادعة ، إلا وهي تلهث من غير أن تكون هناك إلا حرارة أجوافها ، والذي طبعت عليه من شأنها ، إلا أن لهث الكلب يختلف بالشدة واللين (١) .

فالاعتراض هنا يتوجه إلى التشبيه ، إذ ظن صاحبه أنه غير دقيق محكم في بابه ، وشبهته في ذلك تتلخص في أمرين :

أحدهما : أن المشبه وهو من أعطى شيئا فلم يقبله لا يشبه بكلب إن حملت عليه نبح ، أو تركته نبح لخفاء وجه الشبه بين الطرفين .

وثانيهما : أن لهاث الكلب لا يكون إلا من الحر والعطش والتعب ، والكافر هنا لم يعان شيئا من نحو هذه الثلاثة فلم عدل القرآن عن النباح المتوقع ذكره إلى اللهاث ؟

هذان هما الأمران اللذان دفعا بالشبهة إلى المعترض ، فاختلجت في نفسه اختلاجا صوره الجاحظ وافيا دقيقا دون انتقاص ، فإذا تم له أن يأتى بالاعتراض على أوضح وجوهه ، عمد إلى المأخذ الأول . فذكر أن قول الله عز وجل في ختام الآية الكريمة : « ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا »

---

(١) الحيوان جـ ٢ ص ١٥ — ١٧

يدل على أن المشبه ليس من أعطى شيئا فلم يقبله، كاتصور المعترض ، ولكنه من كذب بالآيات حين توالت دلائلها الصادقة عليه ، والتكذيب — بالتضعيف — لا يكون مرة واحدة ، وإنما هو إمعان فى الرفض وإلحاح فى الدفع مهما وضحت الدلائل ، وظهر اليقين ، ومن يتوالى رفضه المكذب لكل دليل يقدم إليه مع طلبه إياه ، وحرصه عليه ، فهو شبيه بالكلب إذ يعطى الجد والجهد من نفسه فى كل حالة من الحالات ، ثم يرجع كما كان نابحا غير مستريح ، فالمكذب إذن معاند لا يزال يلج ، قدمت له الإقناع بالدليل أو تركته كالكلب فى طريقك يقدم عليك نابحا ، ويتركك نابحا ، والتشبيه بعد ذلك من الدقة والبراعة بحيث يسكت كل لجاج .

أما الأمر الثانى : فى قول الله عز وجل « إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث » إذ توهم المعترض أن اللهاث لا يكون من غير الحر والعطش والتعب، والكلب النابح فى الطريق لا يعانى شيئا من ذلك فيلهث، وقد قضى الجاحظ عليه حين قال :

« والكلب إذا أتعب نفسه فى شدة النباح مقبلا عليك ، ومدبرا عنك لهث واعتراه ما يعتريه عند التعب والعطش ، وهو أمر يدركه الأطفال قبل الرجال ، فكيف جاز لمن يجد فى نفسه الجرأة على نقد التشبيه أن يجهله ، بل إن الجاحظ أستاذ علم الأحياء فى عصره ليتهكم خفيا بالمعترض حين يقول : « على أننا ما نرى بأبصارنا إلى كلابنا وهى رابضة وادعة إلا وهى تلهث من غير أن يكون هناك إلا حرارة أجوافها ، والذى طبعت عليه من شأنها » فكأن الاعتراض الثانى قد مات سقطا قبل أن يستهل ويمنح الحياة[1] .

وتأمل قوله تعالى : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء

---

(١) خطوات التفسير البيانى للقرآن الكريم ص ٨٨ ، ٨٩

فاختلط به نبات الأرض ، فأصبح هشيما تذروه الرياح ، وكان الله على كل شيء مقتدرا »(١) .

وقوله سبحانه « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما »(٢) .

وقوله جل شأنه : « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام ، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس »(٣) .

فى الآيات السابقة صور القرآن الكريم فناء هذا العالم الذى نراه مزدهرا أمامنا عامرا بألوان الجمال ، فيخيل إلينا استمراره وخلوده .

لقد وجد القرآن فى الزرع يرتوى من الماء فيصبح بهيجاً نضرا يعجب رائيه ، ولكنه لا يلبث أن يذبل ويصفر ، ويصبح هشيما تذروه الرياح ، وجد القرآن فى ذلك شبها لهذه الحياة الدنيا ، ولقد أوجز القرآن مرة فى هذا التشبيه وأطنب ليستقر معناه فى النفس ، ويحدث أثره فى القلب(٤) .

— وكما ترى — فقد شبه حال الدنيا فى نضارتها وبهجتها ، وما يتعقبها

---

(١) الكهف ٤٥
(٢) الحديد ٢٠
(٣) يونس ٢٤
(٤) من بلاغة القرآن ص ٢٠٩

من الهلاك والفناء بحال النبات يكون أخضر مورقا ، ثم ييبس وتطيره الرياح كأن لم يكن(١) .

يقول الرمانى : وهذا بيان قد أخرج ما لم تجر به عادة إلى ما قد جرت به ، وقد اجتمع المشبه والمشبه به فى الزينة والبهجة ، ثم الهلاك بعده ، وفى ذلك العبرة لمن اعتبر والموعظة لمن تفكر فى أن كل فان حقير وإن طالت مدته ، وصغير وإن كبر قدره(٢) .

كما يقول أبو هلال : بيان ما جرت به العادة إلى ما لم تجر به ، والأمر الذى يجمع الأمرين الزينة والبهجة ، ثم الهلاك ، وفيه العبرة لمن اعتبر والموعظة لمن تذكر(٣) .

وكلام أبى هلال يكاد يكون كلام الرمانى بمفهومه ومنطوقه .

ويقول ابن الأثير : شبهت حال الدنيا فى سرعة زوالها وانقراض نعيمها بعد الإقبال بحال نبات الأرض في جفافه وذهابه حطاما بعد ما التف وتكاثف وزين الأرض ، وذاك تشبيه صورة بصورة ، وهو من أبدع ما يجىء فى بابه(٤) .

كما يشيد أيضا بجمال التشبيه وروعته الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى حيث يقول : والجامع البهجة والزينة ، ثم الهلاك وفيه العبرة(٥) .

---

(١) الإيضاح جـ ٣ ص ٣٧
(٢) النكت فى إعجاز القرآن ص ٨٣
(٣) الصناعتين ص ٢٦٣
(٤) المثل السائر جـ ١ ص ٤٠٤
(٥) البرهان فى علوم القرآن جـ ٣ ص ٤٢١

وأبو عبد الله محمد بن على الحكيم الترمذى بقوله : أراهم الله عاقبة أمر الدنيا وفناءها بما عاينوا من انقضاء أيام الربيع كيف تلاشت زينتها وبهجتها كذا حال زينة الدنيا(١) .

كما يقول الإمام محمد مصطفى المراغى ه فى الدنيا لعب ولهو يتفكه الناس بهما ، وأكثر ما يكون الأول الصبيان ، وأكثر ما يكون الثانى الشبان ، وأكثر ما تكون الزينة للنساء ومن فى حكمهن من الرجال ، وفيها تفاخر بالأنساب والقدرة وغيرها من الصفات ، وفيها مباراة فى الإكثار من المال والولد والجيوش ، وكل هذه عرضة التبـــدل والزوال ، ويغلب أن تقع الحسرات بعد اللهو واللذات .

وقد ضرب الله مثلا للدنيا فى سرعة تقضيها وقلة جدواها ، وفى بهجتها عند إقبالها ، وعبوسها عند إدبارها ، فبين أنها كالنبات يستوى على سوقه ويخضر ، ويعجب به الزارع ثم يجف ويصفر ، ويكون هشيما وحطاما متكسرا ، ففى الطور الأول جمال وفتنة وسحر للناظرين ، وبهجة للنفس والعين ، وأنس لا يقدر قدره ، لكن هذا الطور لا يدوم بل ينقضى بسرعة ، ويحل الطور الثانى ، وفيه يزول الجمـــال والسحر والفتنة وراحة العين ثم لا يبقى من الأعواد البديعة إلا حطام لا تستريح النفس إلى رؤيته وتذروه الرياح .

قال سعيد بن جبير : الدنيا متاع الغرور إذا ألهتك عن طلب الآخرة ، أما إذا دعتك إلى رضوان الله فنعم المتاع ، لكن الله سبحانه لما علم حب النفوس لزخرف الدنيا وعلم فتنتها وإعجاب الخلق بها أراد أن يحط من

---

(١) الأمثال من الكتاب والسنة صـ ١٨

قدوها لتضعف شدة الرغبة فيها ، وشدة الحرص عليها ، وليوجه الناس إلى الآخرة بالإحسان فى طلب الدنيا(١) .

هذا . ومن البين أن هذا التشبيه يدخل ضمن التشبيه التمثيلى الذى يتبوأ فى البلاغة أسمى مكان .

يقول الإمام عبد القاهر : ينبغى أن تعلم أن المثل الحقيقى والتشبيه الذى هو الأولى بأن يسمى تمثيلا لبعده عن التشبيه الظاهر الصريح ، ماتجده لايحصل لك إلا من جملة الكلام ، أوجملتين أو أكثر ، حتى إن التشبيه كلما كان أوغل فى كونه عقليا محضا كانت الحاجة إلى الجملة أكثر .

ألا ترى إلى نحو قوله عزوجل « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس » .

كيف كثرت الجمل فيه حتى إنك ترى فى هذه الآية عشرجمل إذا فصلت وهى وإن كان قد دخل بعضها فى بعض حتى كأنها جملة واحدة ، فإن ذلك لايمنع من أن تكون صورة الجمل معنا حاصلة تشير إليها واحدة واحدة ، ثم إن الشبه منتزع من مجموعها من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض ، وإفراد شطر من شطر ، حتى إنك لو حذفت منها جملة واحدة من أى موضع كان أخل ذلك بالمغزى من التشبيه(٢) .

* * *

(١) مجلة الأزهر — المجلد الثانى عشر ص ٢٦٠ ، وانظر خطوات التفسير البيانى ص ٣٠٤

(٢) أسرار البلاغة ص ١٢٢ .

وهكذا نجد التشبيه القرآنى لا يعنى بنفاسة المشبه به ، وإنما العناية كلها باقتراب الصورتين فى النفس وشدة وضوحها وعظيم تأثيرها .

كذلك فإن التشبيه القرآنى يستمد عناصره من الطبيعة ، وهذا سر خلوده وبقائه .

كما يمتاز التشبيه القرآنى بالدقة فى اختيار ألفاظه المعبرة الموحية ، وتصوير المعانى تصويراً قويا مؤثراً يملك القلب ويأسر اللب ، إلى جانب تأثيره فى العاطفة أيما تأثير .

وهذا قليل من كثير ، فالتشبيه القرآنى من أسرار الإعجاز ، وقد عده الرمانى من أقسام البلاغة التى هى أحد وجوه الإعجاز(١) .

إن التشبيهات القرآنية صور بيانية رائعة لها خصائص اتسمت بها ، فهى خالدة خلود الدهر ، باقية بقاء الإنسان(٢) .

---

(١) النكت فى إعجاز القرآن ص ٧٦ .

(٢) انظر : المثل السائر لابن الأثير ، والبرهان فى علوم القرآن للزركشى والاتقان فى علوم القرآن للسيوطى ، والجمان فى تشبيهات القرآن لابن ناقيا البغدادى ، والفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان للإمام شمس الدين المعروف بابن القيم الجوزية ، والصناعتين لأبى هلال العسكرى ، وأسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجانى ، وإعجاز القرآن للباقلانى ، والمعجزة الكبرى للشيخ محمد أبو زهرة ، وخطوات التفسير البيانى للدكتور رجب البيومى ، والتصوير البيانى للدكتور محمد أبو موسى ، والقرآن والصورة البيانية للدكتور عبد القادر حسين ، والبيان فى ضوء أساليب القرآن للدكتور عبد الفتاح لاشين .

وأسرار التشبيه القرآنى لاتنتهى ، والحديث عنها لاينفد ، فالقرآن الكريم بحر زاخر باللآلىء الغالية ، وكلما غصت فى أعماقه — وأعماقه لاقرار لها — وجدت الدرر الثمينة والكنوز النفيسة .

وصدق الله العظيم إذ يقول : « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله »(١) .

وصلى الله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) الزمر ٢٣

أهم المراجع

١ — الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى — مصطفى البابى الحلبى بمصر الطبعة الرابعة ١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ م

٢ — الأمثال من الكتاب والسنة لأبى عبد الله محمد بن على الحكيم الترمذى — تحقيق على محمد البجاوى — دار نهضة مصر .

٣ — الأسلوب للأستاذ أحمد الشايب — مكتبة النهضة المصرية — الطبعة السابعة ١٣٩٦ هـ — ١٩٧٦ م

٤ — الإيضاح للخطيب القزوينى — تحقيق الشيخ عبدالمتعال الصعيدى — مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز بالقاهرة .

٥ — الإعجاز البيانى للقرآن للدكتورة عائشة عبدالرحمن «بنت الشاطئ» دار المعارف ١٩٧١

٦ — أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجانى — تحقيق الشيخ أحمد مصطفى المراغى — المكتبة التجارية الكبرى بمصر .

٧ — إعجاز القرآن للباقلانى — تحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر — دار المعارف بمصر — الطبعة الرابعة .

٨ — إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للأستاذ مصطفى صادق الرافعى — المكتبة التجارية الكبرى بمصر — الطبعة السابعة ١٣٨١ هـ — ١٩٦١م

٩ — إعجاز القرآن للدكتور السيد محمد الحكيم — مطبعة دار التأليف بمصر ١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ م .

١٠ — أسس النقد الأدبي عند العرب للدكتور أحمد بدوي — دار نهضة مصر .

١١ — البيان في إعجاز القرآن للخطابي ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز — دار المعارف بمصر الطبعة الثالثة .

١٢ — البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ — مكتبة الخانجي بالقاهرة — الطبعة الرابعة .

١٣ — البيان في ضوء أساليب القرآن للدكتور عبد الفتاح لاشين — دار المعارف — الطبعة الأولى .

١٤ — البلاغة تطور وتاريخ للدكتور شوقي ضيف — دار المعارف — الطبعة الرابعة .

١٥ — البلاغة التطبيقية للدكتور أحمد موسى — دار المعرفة — الطبعة الأولى ١٩٦٣ .

١٦ — البيان العربي للدكتور بدوي طبانة — مكتبة الأنجلو المصرية — الطبعة السادسة ١٣٩٦ هـ — ١٩٧٦ م .

١٧ — بديع القرآن لابن أبي الأصبع — دار نهضة مصر — تحقيق الدكتور حفني شرف — الطبعة الثانية .

١٨ — البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي — دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت — الطبعة الثانية .

١٩ — التبيان في علوم القرآن للأستاذ محمد علي الصابوني — دار الإرشاد بيروت — الطبعة الأولى ١٣٩٠ هـ — ١٩٧٠ م .

٢٠ — التصوير الفني في القرآن للأستاذ سيد قطب — دار المعارف بمصر — الطبعة الثامنة .

٢١ — التصوير البياني للدكتور محمد أبو موسى — مكتبة وهبة بالقاهرة — الطبعة الثانية ١٤٠٠ هـ — ١٩٨٠ م .

٢٢ — التعبير الفنى فى القرآن للدكتور بكرى شيخ أمين — دار الشروق — الطبعة الرابعة ١٤٠٠ هـ — ١٩٨٠ م .

٢٣ — تفسير القرطبي للإمام القرطبي — دار الشعب .

٢٤ — تفسير البحر المحيط لأبى حيان التوحيدى — دار الفكر — الطبعة الثانية ١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ م

٢٥ — تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة — تحقيق الأستاذ السيد صقر — الطبعة الثانية دار التراث بالقاهرة ١٣٩٣ هـ — ١٩٧٣ م .

٢٦ — تاريخ آداب العرب للأستاذ مصطفى صادق الرافعى . مطبعة الاستقامة — الطبعة الرابعة .

٢٧ — الجمان فى تشبيهات القرآن لابن ناقيا البغدادى — تحقيق الدكتور مصطفى الصاوى الجوينى — منشأة دار المعارف بالاسكندرية .

٢٨ — الحيوان لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ — تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ١٣٨٤ هـ — ١٩٦٥ م .

٢٩ — خصائص التراكيب للدكتور محمد أبو موسى — مكتبة وهبة — الطبعة الثانية ١٤٠٠ هـ — ١٩٨٠ م .

٣٠ — خطوات التفسير البيانى للقرآن الكريم للدكتور محمد رجب البيومى — سلسلة البحوث الإسلامية ١٣٩١ هـ — ١٩٧١ م .

٣١ — الخصائص لأبى الفتح عثمان بن جنى — دار الهدى للطباعة والنشر — بيروت — الطبعة الثانية .

٣٢ — دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة — لموريس بوكاى — دار المعارف لبنان .

٣٣ — دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجانى — تحقيق السيد رشيد رضا — مكتبة القاهرة ط ١٣٨١ هـ — ١٩٦١ م .

٣٤ – دراسات بلاغية فى القرآن الكريم والحديث الشريف للدكتور محمد حسن شرشر – الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ – ١٩٧٨ م .

٣٥ – دراسة أدبية لنصوص من القرآن للأستاذ محمد المبارك – دار الفكر – الطبعة الرابعة ١٣٩٢ هـ – ١٩٧٣ م .

٣٦ – شروح التلخيص للقزوينى وغيره – مطبعة السعادة بمصر – الطبعة الثانية ١٣٤٣ هـ .

٣٧ – شواهد العلم فى هدى القرآن للأستاذ محمد سعد المقدم – الطبعة الأولى ١٩٥٠ م .

٣٨ – الصناعتين لأبى هلال العسكرى – دار الكتب العلمية بيروت – الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م .

٣٩ – العمدة لابن رشيق القيروانى – تحقيق الشيخ محمد محى الدين عبد الحميد – دار الجيل بيروت الطبعة الرابعة ١٩٧٢ .

٤٠ – عجائب القرآن للإمام فخر الدين محمد عمر بن الحسين الرازى – تحقيق عبد القادر أحمد عطا – الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢ م .

٤١ – غريب القرآن لأبى بكر السجستانى – طبعة حجازى بالقاهرة .

٤٢ – الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان للإمام شمس الدين أبى عبد الله المعروف بابن القيم الجوزية – دار الكتب العلمية – بيروت .

٤٣ – القرآن وإعجازه العلمى للأستاذ محمد إسماعيل إبراهيم – دار الفكر العربى – دار الثقافة العربية بالقاهرة .

٤٤ – القرآن وإعجازه التشريعى للأستاذ محمد إسماعيل إبراهيم – دار الفكر العربى – دار الثقافة العربية للطباعة .

٤٥ – القرآن والصورة البيانية للدكتور عبد القادر حسين – دار نهضة مصر للطبع والنشر – القاهرة .

٤٦ — الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل للزمخشري - الحلبي ١٩٧٢ م .

٤٧ — لباب البيان للدكتور محمد حسن شرشر - الطبعة الأولى ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .

٤٨ — معجزة القرآن للشيخ محمد متولى الشعراوى - كتاب اليوم - الطبعة الثانية .

٤٩ — معجزة القرآن للأستاذة نعمت صدقى — دار الاعتصام — الطبعة الثانية ١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ م .

٥٠ — المعجزة الكبرى للشيخ محمد أبو زهرة - دار الفكر العربى - دار وهدان للطباعة والنشر .

٥١ — مناهل العرفان للشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى - دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابى الحلبى .

٥٢ — من بلاغة القرآن للدكتور أحمد بدوى - دار نهضة مصر للطبع والنشر بالقاهرة .

٥٣ — المثل السائر لابن الأثير تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد - شركة ومكتبة مصطفى البابى الحلبى ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م .

٥٤ — المعانى الثانية فى الأسلوب القرآنى للدكتور فتحى عامر - منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٧٦ .

٥٥ — معانى الحروف لأبى الحسن على بن عيسى الرمانى - تحقيق الدكتور عبد الفتاح شلبى — دار نهضة مصر .

٥٦ — من مباحث علوم القرآن للشيخ مناع القطان - مؤسسة الرسالة - بيروت — الطبعة السابعة ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .

٥٧ — من أسرار التعبير القرآنى للدكتور محمد أبو موسى - دار الفكر العربى بالقاهرة الطبعة الأولى ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م .

٥٨ — من بلاغة النظم العربي للدكتور عبد العزيز عرفة — الطبعة الأولى ١٤٠٠ هـ — ١٩٨٠ م

٥٩ — النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز — الطبعة الثانية ١٣٩٠ هـ — ١٩٧٠ م

٦٠ — النكت في إعجاز القرآن للرماني ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز — دار المعارف بمصر — الطبعة الثالثة .

٦١ — النظم القرآني في سورة الرعد للأستاذ محمد بن سعد الدبل — عالم الكتب — دار النصر للطباعة الاسلامية — شبرا مصر .

٦٢ — النقد الأدبي للأستاذ أحمد أمين — دار الكتاب العربي — بيروت — الطبعة الرابعة ١٣٨٧ هـ — ١٩٦٧ م .

٦٣ — واقعية المنهج القرآني للأستاذ توفيق محمد سبع — الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ١٣٩٣ هـ — ١٩٧٣ م

الفهرس

رقم الإيداع بدار الكتب
٢٨٤٧ / ١٩٨٣ م